51

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة الحادية عشرة / (نوفمبر - ديسمبر) ٢٠١٥

سِرّ الوجود

يَتَسَارّان، روحيهما يتبادلان.

همات ساريات، على جناح النسيم جاريات..

بسر الوجود تفيضان، وللخالق تسبحان..

فإذا الروح في غبطة، وإذا العقل في نشوة.

* * *

٢ تجديد الذات
فتح الله كولن

٥٠ الوعي بالتاريخ واستشراف المستقبل
د. إسماعيل جولاك

١٤ بين إنسان الغاية والإنسان المثالي
د. سليمان الدقور

الحياة المتجددة

إن تجديد "الذات" الذي يدعو إليه "فتح الله كولن" في مقاله العتيد والمتصدر لهذا العدد من "حراء"، يكاد يكون أهمّ أعمدة فكره الذي تقوم عليه الفلسفة الانبعاثية في النهوض بالفكر والدين.. فهو لا زال يؤكد ويستمر في التوكيد، على أن الحياة التي يحياها الأفراد والمجتمعات والدول، قد تضيع وتتسرب إلى خارج وجودنا الإنساني إذا نحن -أفرادًا وأممًا- لم نحسن كيفية تجديد هذا الذات الممثل للجوهرية الإنسانية، وكيف نعيد بين آونة وأخرى تجديد ما تعتّق منه، وتآكل من أعمدته وبنيانه.. بل يذهب إلى أبعد من ذلك، فيرى أن الزوال والفناء نتيجة حتمية لمن يعجز عن تجديد ذاته في وقت الحاجة والضرورة. فتجديد الذات هو -في جوهره- حركة نحو الحياة المتجددة، واستجابة لنواميس الأكوان والطبيعة والوجود، مَنْ يندُّ عنها تسحقه النواميس، وتلقي به خارج دورة الحياة ودائرة البقاء.

أما عبد الإله بن مصباح، فإن مقاله عن "المتاهة الخطيرة تجزئة العلوم.. إلى أين؟" يكاد يؤكد على خصوصية هذه الأمة في تفاعلها مع العلوم الحديثة، حيث يقول بعد أن أشار إلى المسارات الخاطئة التي تتجه إليها العلوم الحديثة: "لأجل ذلك حرص الإسلام كل الحرص على الأخلاق في العلم، لإعداد الأمة التي ستؤدي إلى الأمانة وتحمل الرسالة".

والشاهد البوشيخي -وكما عوّدنا- فقد أتحفنا بمقال غاية في العلمية والرصانة بعنوان "السلسلة الذهبية.. فرد فأسرة فمجتمع"، حيث قال: "فالمؤمن الذي يعتني بالإيمان، يحمي ظهره بأهله إن كانوا من جنسه، وإذا كان الأهل من جنس المؤمن مثلوا خطوطًا خلفية تحمي ظهره".

وفي مقال نقدي متميز، يكتب سليمان الدقور عن "الإنسان الغاية والإنسان المثالي"؛ مستعرضًا ومحللاً لبعض ما كتب ونشر عن فكر "فتح الله كولن" على صفحات مجلة "حراء"، فيقول: "فلا بد من التأكيد هنا بشكل واضح، أن القراءة المتأنية الفاحصة الكاشفة عن الدلالات الموضوعية في فكر "فتح الله كولن"، هو ما تحتاجه هذه الكتابات العميقة المؤثرة، ذلك أن مطلوبها الرئيس هو صناعة الإنسان وإعادة بنائه وفاعليته".

أما مقال إسماعيل جولاك عن "الوعي بالتاريخ واستشراف المستقبل"، فهو يعالج هذا الموضوع من المنظور القرآني، حيث يقول: "يجب أن ننظر إلى التاريخ بعين البصيرة والعبرة، كما ننظر إلى القصص القرآني ونستخلص منه العبر".

وفؤاد البنا يكتب مقالاً بعنوان "إعصار الكبر الحارق"، يعالج فيه سلوكيات المتكبرين والمتغطرسين فيقول: "إن الناظر في حقيقة أعمال المتكبرين، سيجدهم يسلطون جوانحهم وجوارحهم على حقوق الناس اجتياحًا وبغيًا وإفسادًا، وتستبيح حرماتهم حتى لكأنها شعلة نار متقدة، أو إعصار حارق، أو جحيم يستعر، ونار تتلظى".

وفي "الطفل والمدنية"، يكتب محمد باباعمي مقالاً فيه روعة الحقيقة آتية مجنحة في خاطرات، راودت عقل الكاتب وروحه ووجدانه وللجواب على ما دار في ذهنه من إشكالات يقول: "اهتديت إلى ثلاث عبارات جمعتها في عبارة واحدة "الله والحرية لا ينفصلان"؛ فإذا سلمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله، فإننا بذلك نعترف بوجود الله".

وبعد، هذه إشارات سريعة لما يحتويه هذا العدد من "حراء" من مقالات، آملين أن يجد فيها القارئ الكريم الفائدة والمتعة، ومن الله التوفيق والتسديد.

المحتويات

تجديد الذات / فتح الله كولن (المقال الرئيس)	٢
المتاهة الخطيرة تجزئة العلوم.. إلى أين؟ / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)	٥
السلسلة الذهبية.. فرد فأسرة فمجتمع / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)	٨
قشرة الشعر.. أسبابها وعلاجها / د. حذيفة أحمد الخراط (علوم)	١١
بين إنسان الغاية والإنسان المثالي / د. سليمان الدقور (قضايا فكرية)	١٤
الأيام ما قبل الأخيرة / حراء (ألوان وظلال)	١٧
سيد الأزمان / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)	١٨
في تجديد الخطاب الدعوي (١) / د. عبد الحميد عشاق (قضايا فكرية)	٢٠
سلطانة الماء / حراء (ألوان وظلال)	٢٤
منظفو البيئة / د. ناصر أحمد سنه (علوم)	٢٥
وارثو الأرض / د. ليلى محمد السبيعي (أدب)	٢٨
بشائر ونُذُر / حراء (ألوان وظلال)	٢٩
النور الخالد.. إشارات وبشارات / عادل سعيد القدسي (أدب)	٣٠
جمالية العبادة.. الشوق إلى الله تعالى / د. مصطفى بوزغيبة (أدب)	٣٣
الكتاب / حراء (ألوان وظلال)	٣٥
أقوى الخيوط وأوهن البيوت / د. محمد السقا عيد (علوم)	٣٦
ثقافة البيت العثماني / د. ممتاز أيدين (تاريخ وحضارة)	٤٠
بلغيه سلامي / عبد الله العزاوي (شعر)	٤٣
نداء الحب / د. رشيد كهوس (قصة)	٤٤
الحشرة الخارقة / د. ناصر أحمد الكناني (علوم)	٤٦
الوعي بالتاريخ واستشراف المستقبل / د. إسماعيل جولاك (تاريخ وحضارة)	٥٠
إعصار الكبر الحارق / د. فؤاد البنا (قضايا فكرية)	٥٣
سبيل المصلحين / د. جمال السفرتي (قضايا فكرية)	٥٧
نموذج "الطفل والمدنية" / د. محمد باباعمي (قضايا فكرية)	٦٠
لغة الكيمياء في الكائنات الحية / أسامة سعيد محمد (علوم)	٦٣

تجديد الذات

تجديد الذات هو الشرط الأول لمن أراد البقاء. ومن عجز عن تجديد ذاته وقت الحاجة؛ محكوم عليه بالزوال والفناء عاجلاً أم آجلاً مهما بلغ من القوة. كل كائن في هذا الوجود يحافظ على حيويته، ويواصل مسيرته عبر تجديدٍ لذاته. فإذا توقفت دورة التجديد، أصيب بالتآكل والبِلى كجثة انتُزِعت منها روحُها.

ما أروع بساط الأرض في موسم الربيع! كل شيء يسعى ليجدد ذاته. الأعشاب، والأشجار، والتراب الذي يؤوي ملايين الأحياء في

جزء ضئيل بحجم الظفر. هيا اخرج إلى عالم الربيع، وخذ جولة بين الكائنات، لترى بهجتها، وتسمع تهليلها، وقد لبست حلتها الجديدة، وازّينت بنياشينها القشيبة، وانطلقت تنمو وتزدهر فرحة سعيدة. تأمل تلك الجوامد التي تبدو كالموتى بلا حراك كيف حوّلت وجه الأرض -من أوله إلى آخره- إلى ساحة عيد بهيجة كالجنان بشاراتِها الملونة الزاهية وأسلحتها المتنوعة، وكأنها جيوش تستعد لاستعراض رسمي. انظر كيف تضرب المثَل، بل آلاف الأمثال، بل ملايينها، لتَجدُّد عظيم يشمل الأرض كلها في آن واحد.

ثم ارجع البصر إلى هذا الكائن الذي أخذ ينبض بالحياة.. أترى كيف انخرط في مسيرة الانبعاث بأنفاس متتابعة!؟ واعطف على تلك النواة التي تبشر بتفتح زهرة جميلة.. أترى كيف تكابد آلام مخاض جديد.. وتلك الزهور التي تناثرت حُبيباتُها في الهواء.. كم هي رائعة.. وحبوب اللِّقاح التي تعلق بأرجل الحشرات لتنقلها إلى مواقع للتكاثر. أجل، كل شيء يتجدد، ومن تخلّف عن ركب التجديد؛ يفنى ويتلاشى بلا انبعاث مرة أخرى.

كذلك الإنسان ينبغي أن يجدد نفسه. فالدول والأمم بقدر تجديدها لذاتها في عمقها الفكري والعاطفي وفي حياتها القلبية والروحية وتدفّقها فتوة وشبابًا، تتأهل لتحمُّل مسؤوليات كبرى على مستوى المعمورة، وتغدو جاهزة لفتح العالم. أجل، فتح العالم من خلال إثراء العلوم بنور البصيرة، وتزويد التكنولوجيا بقيم الإيمان، ونفخ الإنسانية بمعانٍ ورسائل تمكنها من الانبعاث؛ أما لو أخفقت الأمم والمجتمعات في ذلك التجديد، فإنها لن تنجو من الذل والهوان في جو من الأسر المهين.

ولكن حذار من الخلط بين تجديد الذات، والهيام بكل محدَث جديد أو الشغف بكل تقليعة مبهرة. فالتجديد الثاني ليس إلا محاولة لإخفاء التجاعيد بوضع طلاء على حشود سرى في وجوهها التمزق والتآكل وامتد إلى جميع أطرافها؛ أما التجديد الأول فسعي حقيقي لإرواء المجتمع بماء حياة من معين الخضر، ومنحِه سمةَ الخلود.

إن التجديد الحقيقي هو الارتقاء إلى فضاءات من

تجديد الذات هو الشرط الأول لمن أراد البقاء. ومن عجز عن تجديد ذاته وقت الحاجة؛ محكوم عليه بالزوال والفناء -عاجلاً أم آجلاً- مهما بلغ من القوة. كل كائن في هذا الوجود يحافظ على حيويته، ويواصل مسيرته عبر تجديدٍ لذاته. فإذا توقفت دورة التجديد، أصيب بالتآكل والبِلى كجثة انتُزِعت منها روحُها.

حراء

التفكر أكثر جِدّة ووضوحًا عبر إنتاج تَواليفَ فريدة بين القيم التي توارثتها الأجيال وصقلتها قرنًا بعد قرن، وزبدةِ التجارب الفكرية والعرفانية الراهنة، مع الحفاظ على جوهر البذور وصفاء الجذور. أما وسم المرء بالجِدّة ووصمه بالقدم بناء على جاكتة لامعة أو فستان فاقع، أو معطف أنيق أو شعر مدهون، فسذاجة صارخة وانخداع مريع؛ والسعي إلى فرض هذا النوع من التفكير، ضرب من التحايل والتمويه والتهريج.

تجديد الذات حركة تسري في الخط الميتافيزيقي.. تجديد الذات انبعاث في الأفق الروحي.. انبعاث مع التزام تام بقيم الأصالة وعمق المقدسات. فإذا كان بعيدًا عن هذه المعاني، فهل يسمى انبعاثًا!؟

فإذا استطعنا أن نستثمر العلوم في تقدمها الهائل، والتكنولوجيا في إعدادها لنا إمكانات جديدة أفضل ما يكون الاستثمار، وتمكنّا من أن نلتفت إلى أعماق قلوبنا بالمجهر في أيدينا مرة بعد أخرى، نرصد مشاعرنا وأفكارنا، ونتتبع تصوراتنا ورؤانا، وأن نضيف معاني جديدة إلى خلية العرفان الكامنة في قرارة أفئدتنا كل يوم، وأن نمرر الأكوان كلها من موشور الروح عدة مرات في كل لحظة، وندرّب الأذهان على هذا النمط من الجهاد.. فذلك هو التجديد الحقيقي.

إن فردًا نجح في تجديد ذاته بهذا المعنى، يصبح ركنًا أساسيًّا من أركان المجتمع لا يذبل ولا يفنى، وإن مجتمعًا تَشكّل أفرادُه بهذا السمت، يرقى ليصبح جزءًا مهمًّا في المعادلات الدولية. بيد أن تجديدًا -كهذا- يشمل الأمة كلها، يقتضي طاقمًا وُفّق إلى تجديد ذاته أولاً. هذا الطاقم، له قلب يتقد إيمانًا ويتوهج أملاً،

hiramagazine.com

وله عقل يرفرف عاليًا نحو فضاءات فكرية جديدة في كل حين بفضل مئات من التراكيب التي توصل إليها، وتشع عيناه بحلم الغد المشرق. أجل، طاقم من القدسيين الأخيار، تمكنوا من تجديد أنفسهم. أما السعي إلى تنشئة أجيال طاهرة تَخلُف طاقم القدسيين هؤلاء، تحمل مشاريعهم ورؤاهم كالمشاعل، وتخلّدها في الحياة، فتلك قضية أخرى نؤكد على أهمية العمل عليها كذلك.

حينما أخفق الأمويون في إقناع المجتمع برؤى عمر بن عبد العزيز التجديدية التي اقترحها وقتئذ، لم يستطيعوا إنقاذ أنفسهم من الموت المحقق إزاء هجمات خصومهم الأشداء والتيارات الفكرية العاصفة، فاندثروا في ذلة وتلاشوا في مستنقع وخيم. الأمر نفسه ينطبق على العباسيين وأمويي الأندلس وأتراك العثمانيين بعد القرن السابع عشر.. هؤلاء الذين آثروا سياسة الأبواب المشرعة أمام كل جديد محدثٍ وتناقضٍ آكلٍ للروح بدل المبادرة إلى تجديد في القلب وانبعاث في تلك الروح.

والمؤسف أن الدول العظيمة تلك، عندما هزتها ضربات خصومها وجعلتها تتخبط وتترنح، هرعت إلى الفكر اليوناني والفلسفة اللاتينية تستنجد بهما، بدلاً من اللجوء إلى تجديد نفسها في بُعدها الروحي. بيد أن ذلك لم يُجدِ نفعًا، بل كان سببًا في تعجيل انهيارها، فلقيت حتفها في خط قدري مماثل.

أما المحاولات السخيفة التي قام بها "المستنير" العثماني باسم التجديد والتي جعلته مَسخرة، فقد انحرفت بمجتمعنا عن سمته الخاص، وحولته إلى مخلوق مشوه غريب.

نعم، لم تستطع فكرة "النظام الجديد"[1]، ولا مذبحة الإنكشارية[2]، ولا الفرمان السلطاني[3] الذي أعده دُمَى "كولخانة" المتحمّسون السذّج، أن تفتح للمجتمع العثماني الطريق إلى تجديد ذاته؛ بل نزلت تلك المحاولات التعيسة على المجتمع كالمطرقة، فحطمت رأسه، وأدخلته في حالة غيبوبة يرثى لها. لا ننفي وجود بعض المبادرات الخجولة والمحاولات النافعة في تلك الفترة، لكنها كانت -على الأغلب- محدودة الحضور، دفاعية الطابع، صدامية المزاج.. لذلك لم تأت بالتجديد المنشود.

بل يمكننا القول إن أسقام المجتمع ومشاكله التي كانت بادية مكشوفة، قد أخذت في التنكر والتخفي جراء التدخلات التعسفية، وباتت أكثر خطورة من ذي قبل. إن التدخلات التي تم اللجوء إليها في غير وقتها وغير محلها بُغيةَ علاج أمراض متفشية في المجتمع، لم تكن سوى مسكّنات لمريض يتلوى بآلام مبرحة لكي تقطع أناته، أو مشدّ خصر يوضع على الفتق حلاًّ مؤقتًا، فلم تُجدِ نفعًا سوى تسكين المريض فترة قصيرة.

في الحقيقة، إن كل ما بَشّرت به تلك الأرواح الميتة الذاهلة -التي ضلت طريقها فلا تدري لها مُتّجهًا- تحت شعار التجديد، لم يعدُ أن يكون خداعًا للحشود وتضليلاً. آه، ثم آه من تلك الحشود المخدوعة المضلَّلة! ليت شعري هل سنتمكن من أن نفقّهها كيف تجدد نفسها بالمعنى الحقيقي للتجديد؟! ■

(*) نشر هذا المقال في مجلة سيزنتي التركية، العدد ٤٧ (ديسمبر ١٩٨٢). الترجمة عن التركية: نوزاد صواش.

الهوامش

(١) النظام الجديد: إصلاحات عسكرية أدخلها السلطان العثماني سليم الثالث لتحديث الجيش العثماني، عن طريق إعادة تنظيم الوحدات العسكرية العثمانية وتطوير أسلحتها، وتدريبها على نمط الجيوش الأوروبية الحديثة، وذلك في تاريخ ١٧٩٢م. (المترجم)

(٢) مذبحة الإنكشارية: هي مذبحة جرت بعد ثورة الإنكشارية بإسطنبول في ١٤-١٥ يونيو عام ١٨٢٦م في عهد السلطان محمود الثاني. وانتهت بإلغاء قوات الإنكشارية من الجيش العثماني، ليحل محلها قوات "العساكر المحمدية المنصورة" التي تم تدريبها على نمط الجيوش الأوروبية. (المترجم)

(٣) المرسوم السلطاني أو الخط الهُمايوني: هو الذي عُرف بفرمان التنظيمات، والذي أعلن عنه في حديقة "كُولْخانة" المجاورة لقصر توب قابي في إسطنبول عام ١٨٣٩ في عهد السلطان عبد المجيد، حيث شمل إصلاحات دستورية طبعت صبغتها التغربية التحديثية على فترة طويلة عرفت بفترة "التنظيمات". (المترجم)

hiramagazine.com

د. عبد الإله بن مصباح*

المتاهة الخطيرة

تجزئة العلوم.. إلى أين؟

من المعلوم أن التوجه العلمي السائد في هذا العصر، أصبح يركز أساسًا في مقارباته للكون، على مبدأ المادة القائم على فكرة الكم المهيئة لمشروع الهيمنة. ومن ثم لو راجعنا واقع العلوم من هذا المنظور، لوجدنا أسئلة كثيرة ما زالت تبحث عن نفسها دون أن تجد لها جوابًا. ومن ذلك، النقص الذي ما زالت تعاني منه الرياضيات، والشك الذي ما زال يخيّم على الفيزياء الكمومية، والغموض الذي ما زال يكتنف ميادين البيولوجيا، وخاصة نظرية التطور وعالم الإحساس وما وراء ذلك، ناهيك عن الحجُب التي ما زالت تطال ما فوق الأرض من مستويات الفضاء وما في باطنها، مما ليس للعلم عليه إدراك إلا من خلال المقاربات غير المباشرة. الشيء الذي يجعل مسار البحث العلمي يعاني من نقائص معيبة، سببُها ضيق الرؤية التي انحصرت في زاوية المادة ولم تهتم بما وراء ذلك. فغاب الذوق الراقي في البحث، وبقي التهافت على منافعه المادية.

فالتوجه العلمي السائد بتكريسه لفكرة التجزيء العلمي بهدف التخصص، يكون إنما نفّذ ما أملاه الواقع، لكنه بتوجيهه لهذا التخصص في اتجاه المصالح المادية، يكون أورد العالَم متاهات خطيرة جعلت الفرد ينحصر في حيز ضيق من مجال المعرفة حجبه عن باقي المعارف. فهو بذلك جزّأ شجرة العلم إلى أغصان متباينة، وفرض على كل باحث أن يتشبث بغصن واحد منها دون أن يلتفت بنظره إلى الغصن الآخر، حتى يتم توجيه البحوث إلى الوجهات التي تمليها مصالحه.

لكن العلم هو أشمل من ذلك بكثير، وأبعد من أن ينحصر في زوايا محدودة بمحدودية التخصص المفروض. ذلك لأنه رؤية شمولية جامعة ومتوازنة بين الحقائق من شتى التخصصات، القصد منها إيصال الباحث إلى الحقيقة الواحدة التي يحتضنها الكون. أما تلك التخصصات التي فرضها الواقع العلمي السائد، فما هي إلا شُعَب من كلية جامعة ذات موضوع علمي واحد عنوانه الحقيقة. ومهما كانت حقائق تلك التخصصات جزئية غير منسجمة مع هذا العنوان، فإن معارفها ستبقى شاذة مبتورة بعيدة كل البعد عن الكتاب العلمي الجامع

العلم ذلك المشعل الذي لا ينطفئ، هو دليل الإنسان في حياته، وبقاء عمله بعد مماته. فإن هو احتضنته أيد عارفة به أشع بنوره وأضاء، وإن هو وقع في أيد العابثين ألقى بشراراته فأحرق.

للكون، وعن أبعاده اليقينية المطمئنة لنفس الإنسان التي تمكنه من المساهمة الهادفة في بناء حضارته.

فإذا كان ما أنجزه العلم في القرن الأخير -مما لم تستطع البشرية تحقيقه على مدى عدة قرون من تاريخها- يستدعي الدهشة والانبهار، فإن من دواعي التبصر والاعتبار، أن يقف الإنسان وقفة تأمل، ليزن بميزان الأمانة والمسؤولية مضامين ما تمخض عن هذه الإنجازات، ويستحضر بعين المشخص مغزى ما آلت إليه تطبيقاتها. فالعلم ذلك المشعل الذي لا ينطفئ، هو دليل الإنسان في حياته، وبقاء عمله بعد مماته، فإن هو احتضنته أيد عارفة به، أشع بنوره وأضاء، وإن هو وقع في أيد العابثين، ألقى بشراراته فأحرق. والعالِم النافع، هو العارف بعبء الأمانة وجسامة المسؤولية، أما الخارج عن هذا الإطار، فيعتبر مفرطًا وظالمًا لنفسه وللإنسانية؛ لأنه بعمله اللامسؤول، قد يورد العالم مآسي وويلات لن يكون الخلاص منها بالشيء الهين.

من هذا المنطلق يجب تقويم نتائج العلم الحديث. فالمصالح التي توجه مساره، باتت تركز أكثر فأكثر على هذا التجزيء وعلى تجزيء المجزأ، لدرجة أن البحث العلمي تحددت معالمه برسم دوائر عزلت الباحث عن باقي المقومات الراقية للطبيعة، وألزمته التقيّد بمحدودية منافعها المادية، فتصدّر العالَمَ إنسان المطامع الدنيوية، وغُيب عن ساحته صاحب النظرة الذوقية.

هذا ما آل إليه واقع العلم اليوم لما غيّب عن ساحته الفكرية حقيقة المسار الموروث عن الماضي، والمرتبط ارتباطًا جذريًّا بأبعاد الحياة الإنسانية ومستقبل شعوبها. فضرب على هذا الموروث بطوق من حديد جعله يتنكر لكل الأعراف الإنسانية، بل ويخون بكبريائه وسخريته الأمانة العلمية. فنهل من علوم السابقين، ونسب إلى نفسه كل الابتكارات، دون أن يعترف بفضل الأولين، متناسيًا أن ما وصلت إليه إنجازاته فيه نصيب كبير من إرث الماضي. فكان ذلك كافيًا لفرض قطيعة جذرية مع الماضي قصد صنع مستقبل مبهم، تساق فيه العلوم إلى واقع تملي توجهاته مطامع الإنسان وغرائزه.

في ظل هذا التوجه الخانق، ظهر عالم متقدم يستحوذ على كل شيء، وعالم متخلف سمي عالمًا ثالثًا عالة على من سواه. وبسبب هذا التوظيف المفرط للبحوث العلمية في خدمة مطامع السيطرة والتسلط، حلت بالعالم نكستان أثرت في مصيره تأثيرًا عميقًا؛ الأولى تجلت في حدوث الحربين العالميتين الأولى والثانية، اللتين أنتجتا تصاعدًا مهولاً لم يسبق له مثيل لوسائل تدمير الأرض والإنسان، والثانية تمثلت في الاستعمار الذي خلف -وما يزال- تشنجًا خطيرًا في أوضاع العالم، وتناميًا مهولاً للأحقاد الاجتماعية والسياسية.

هكذا في عالم غيبت عنه القيم الإنسانية المستوحاة من النظرة الشمولية وحكّمت فيه المصالح والأهواء النفعية، وقع تبذير الطاقات فيما لا يُجدي بنفع على البشرية، كالسباق على التسلح الذي لبّس الأرض غطاء نوويًّا قادرًا على محو الحضارة الإنسانية، والقضاء على العنصر البشري في هنيهة من الزمن. فلئن كان مفعول قنبلة هيروشيما وناكازاكي قد أحدث كارثة بشرية وبيئية في اليابان سنة ١٩٤٥، فإن سنة ١٩٦٢ شهدت توقيع بروتوكول الموافقة على صنع القنبلة النووية. فشرّع العالم لنفسه هذا العمل تشريعًا جعل السباق على التسلح يتصاعد، حتى بلغت ميزانيته ما يعادل عدة أطنان من المتفجرات فوق رأس كل إنسان يقطن الأرض. والعالم المتقدم بكل بحوثه واهتماماته العلمية، مشغول بروعة التسلح، بينما الملايين من سكان العالم الآخر، يموتون مرضًا وجوعًا واضطهادًا.

وها هي المؤشرات الأولى على آفة هذا التوجه العلمي المعوج بدأت تظهر من مخلفات ما أنتجته يد الإنسان الأثيمة، لما كانت الانطلاقة العلمية غير رزينة، ونية البحث غير سليمة. إذ بعد انهيار المعسكر الشرقي وانتهاء الحرب الباردة، وجدت الدول المصنعة نفسها -والعالم معها- أمام تحدٍّ كبير بسبب ما تشكله هذه

hiramagazine.com

الترسانات الهائلة من الرؤوس النووية من خطر على الأرض والبشرية. فالتخلص من هذه الأسلحة، صار هاجسًا يوميًّا في حياة الناس. والفعاليات الإنسانية والبيئية كلها، تطالب بإزالة هذه الآفة التي تهدد حياة الناس ومستقبل البشرية. وأخيرًا أدرك العالم هذا الخطر، وقرر التقليل من عدد الرؤوس النووية. لكن ذلك اصطدم بعائقين كبيرين، أولهما مادي حيث يتطلب تدمير رأس نووي واحد ما يزيد على المليون دولار، والثاني بيئي يكمن في كيفية التخلص من النفايات المترتبة عن هذه السموم، خاصة وأن المواد المشعة التي تحتوي عليها، لا تتلاشى بسهولة مع الزمن وليس هناك ثمة إمكانية للتخلص منها.

هذا ما جناه العلم على البشرية لمّا جُرد من مقوماته الأخلاقية. فلربما وصل العلماء المسلمون في عهد النهضة الإسلامية إلى شيء من هذه الاكتشافات قبل غيرهم. لكن ما يمليه الضمير الحي، وما تقتضيه ضوابط الحكمة، قد يكون أوجب وأد هذه المهلكات في مهدها، ضمانًا لأمن الأرض وسلامة ساكنيها. فقد كان جابر بن حيان -وهو أب الكيمياء باعتراف العالَم- يقول: "لا تعلّموا الكيمياء إلا لمن تأمنون دينه وخلُقه". وكأننا بصدد وصية من أب في زواج ابنته هو مطالب بوضعها في أيدي أمينة. وذلك أسمى تعبير عن مدى مسؤولية العالِم على تحصين العلم ضد أي عبث قد يؤذي الناس أو يفسد معايشهم. وقبل ذلك كان رسول الله ﷺ يوصي في الدعاء، بأن نسأل الله علمًا نافعًا.

لأجل ذلك، حرص الإسلام كل الحرص على الأخلاق في العلم، لإعداد الأمة التي ستحمل الأمانة وتؤدي الرسالة؛ لأن الاستقامة العلمية، هي التي تصون الحضارة من الدمار، وبدونها لا تنهض الأمم ولا تقوى الهمم مهما بلغت من العلم. فوا أسفاه على ما آل إليه العلم لمّا جرد من مقوماته الإيمانية، ويا حسرتاه على ما فرط فيه الإنسان من عطاء جامعات قرطبة وبغداد وفاس وغيرها.. يوم كانت العلوم الإسلامية تشع بنورها فوق القارات الثلاث بثقافة ترتكز على دعائم الحكمة والإيمان، لا على تقنيات الدمار والطغيان.

فلا عجب أن تكون عجلة الفكر المتحكمة في تطور العلوم وتقدم المعرفة تدور بوتيرة متصاعدة، بحيث نجد ما أنتجه العقل البشري في القرنين الأخيرين، لم ينتجه على مدى امتداد التاريخ. ولا غرابة أن تأتي منجزاتها بكليتها من عند غير المسلمين، فذلك كان مقدرًا بأجله في كتاب حتى يتحقق وعد الله الذي أخبر بذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣). وهو ما نراه يتحقق في آفاق الاكتشافات العلمية التي تأتي الواحدة تلو الأخرى، معلنة بصدق ما سبق أن أخبر به كتاب الله من حقائق كونية تتجلى كل واحدة منها في حينها، فقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾(الأنبياء:٣٠)، يدل على هذا المنحى، بحيث نجد الخطاب القرآني موجهًا لهؤلاء، وهو استفسار علمي جاءت الإجابة عنه اليوم على أيديهم كما وعدت بذلك الآية السابقة، حيث نجد أن الذين كشفوا النقاب عن ظاهرة فتق الرتق هم غير المسلمين، فسموها بالانفجار العظيم (Big Bang). ومثل ذلك كثير مما وصل هؤلاء إلى تحصيله كما فصلناه بالشكل الذي أقره القرآن، بل وحتى بالعبارات التي أوردها في ذكره، والغاية من ذلك أن يتبين لهم الحق من أنفسهم. أما لو كان مشعل العلوم بقي في أيدي المسلمين كما بدأ، وكان غيرهم في موقع التابع، لقال هؤلاء التابعون للمسلمين إذا دعوهم اليوم إلى الدين بحجة هذه الحقائق العلمية الشاهدة على صحة كتاب الله: "إنما جئتم به أكاذيب اصطنعتموها لتبرير ادعائكم"، كما قال أسلافهم من قبل.

وهكذا، فالوقائع التي سجلها العلم في عقوده الأخيرة، والتي سطرنا بعضًا من تداعياتها، تظهر مدى احتياج العلم للدين، وكيف يبقى ميدان البحث العلمي المتنور بالإيمان، مادة خصبة لمد الجسور بينهما، وسد الفجوة التي تفصل الواقع الحالي للعلم عن مساره الإنساني والأخلاقي. ■

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

hiramagazine.com

أ.د. الشاهد البوشيخي*

السلسلة الذهبية

فرد فأسرة فمجتمع

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾(التحريم:٦)، هذه الآية الكريمة هي نداء للمؤمنين ونداء لجمْع. وضابط هذا الجمع، صفة معينة هي الجامع له وهي "الإيمان". بهذه الصفة ينادون، تذكيرًا لهم بهذا الرباط وتنبيهًا لهم على مقتضياته. فمقتضى الإيمان هو أن يؤتمَر بما أمر الله، ويُنتهى عمّا نهى الله عنه، وأن يفعل الإنسان المؤمن ما ينتهي به إلى الجنة ويزحزحه عن النار: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(آل عمران:١٨٥). بالتالي فإن مقتضى الإيمان، هو أن نكون من المُهتدين، والفائزين، والمصلحين، ومن سكان الجنة. ولا ينتظر أن يكون "الإيمان الحق" مؤدّيًا إلى النار، ولذلك قال الله تعالى مذكّرًا ومنبّهًا: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾؛ أي إن الإيمان يجعل بين أنفسكم وبين النار حاجزًا يقيكم ويحميكم ويحول بينكم وبينها، وبالمقابل يمنعها من الوصول إليكم ويكفيكم همّها. هل ذلك يكفي؟ كلاّ.

لا بد أيضًا، أن تجعلوا بين أهليكم وأقربائكم، ونسبكم وعشيرتكم، ومَن لكم به صلةُ نسبٍ أو مصاهرةٍ.. أن تجعلوا بينهم وبين النار كذلك وقاية، وذلك وفقًا لقاعدة "لا يُؤْمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه" (رواه البخاري). لماذا هذا الاتقاء وما موقعه في نظام ومنهاج الدين؟

إن الدين يهدف إلى أن يوحّد طاقات الإنسان في الاتجاه الصحيح، وهو اتجاه عبادة الله ﷻ كما أمر، وأن يكون ما بقلبه وما على لسانه وما تفعله جوارحه في اتجاه واحد، يصدّق بعضه بعضًا ويتطابق بعضه مع بعض، لينتج في النهاية "المؤمن الصادق" وهو المؤمن النموذج في هذا الدين، والإنسان النموذج الكامل في المستوى البشري، وهو الصادق كذلك. لذا ما شهد في هذا القرآن لأناس بهذه الصفة إلا للمهاجرين

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(الحشر:٨)، وغيرهم ممن سار على منوالهم، والتحق بهم، وطُلب منهم أن يكونوا معهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:١١٩).

المؤمن وحدة متناغمة

إن الذين صدقوا، هُم الذين تطابق ظاهرهم مع باطنهم، واستوى قولهم مع فعلهم واعتقادهم وما في قلوبهم، أيْ توحّدوا فصاروا شيئًا واحدًا، بخلاف المشرك المُبعّض المشتّت، والمشرك يختلف عن المخلص الذي له صدْق القلب -وهو الإخلاص- خلاف الكافر. يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾(الحج:٣١)؛ ترى، كيف يكون قلب إنسان يخرّ من السماء، ينزل ولا يستطيع الإمساك بشيء من حوله؟ لا شك أنه سيكون كله خوفًا وفزعًا وتشتّتًا، لا يستقر فيه شيء، ولا يطمئن إلى شيء. ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾(الحج:٣١)؛ هذه صور وجوانب أخرى تكمل الصورة، لا يَفزع الإنسان منها فقط، بل يُفَزّع أيضًا، مكان سحيق لا ندري نهايته.. والذي يكون في هذه الحال؛ لا يستقر على شيء، ولا يطمئن لشيء، ولا يمسك بشيء، ولا يمسكه شيء.. بينما المؤمن ثابت مطمئن راسخ متكامل مترابط الكيان، يشدّ بعضُه بعضًا كالبنيان المرصوص.. باطنه يشد ظاهره، وظاهره يشد باطنه.

وحدة "الأسرة" المحيطة بالمؤمن

هذه الوحدة الأولى التي يبنيها هذا الدين، وبهذه الوحدة ينتقل -بنفس النظام- ليبني محيط هذه الوحدة. إن الوسط الذي تعيش فيه هذه الوحدة، ينبغي أن يكون من جنسها -أيضًا- موحدًا مترابطًا متكاملاً مرصوصًا. وذلكم هو ما يسمى بـ"الأسرة"، والقرآن يعبر عنه بـ"الأهل". وأهل البيت، هُم الذين يحيطون بالشخص ويعيشون في المسكن معه؛ كانوا أصولاً كالأبوين والأجداد، أو فروعًا كالأبناء، أو أغصانًا كالأحفاد، وغير ذلك ممن يمكن أن يساكن الشخص في بيته، وكذلك الذين يتبطن به -وإن لم يساكنوه- مرتبطون ضمن ما

تتكون الأمة من الأفراد ومن الأسرة. والأسرة هي الوحدة الثانية التي يجب الاهتمام بها، والبرمجة لها، والدفع في تقويتها، لأنها هي الوسط للنباتات الجديدة، والوسط الملائم الجيد للأولاد، والدرع الواقي لكلّ فرد يوجد ضمن المجموعة، والكتلة الصلبة التي تقف في وجه كل مَن يحاول أن ينال من هذا الدين.

حراء

يسمّى بـ"العائلة". هؤلاء هم الوسط الذي يعيش فيه المؤمن، وهذا الوسط ينبغي أن يخضع لنوع من الجهد، ليصير من جنس حال المؤمن؛ باطنه خير من ظاهره، وظاهره حسن، وهو متكامل مرصوص مربوط بعضه ببعض، يعيش حالة وحدة لا حالة تشتّت، حالة إقبال لا حالة إدبار، حالة تعاون لا حالة تنابذ وتصارع. الأصل أنه يمثّل الوحدة الثانية بعد الوحدة الفردية؛ الوحدة التي تكون بعد الفرد في نظام بناء المجتمع في الإسلام.. تأتي هذه الوحدة التي ينبغي أن تُبنى على نفس النظام، وعلى نفس القوة التي يكون عليها البناء، هذا ليُحمى ظهر ذلك الفرد الذي كُوّن وبُني.

فالمؤمن الذي بُني بالإيمان، يُحمَى ظهرُه بأهله إن كانوا من جنسه. فالشيطان يضع بينه وبين المؤمن حواجز من أهله، ولكن إن كان الأهل من جنس المؤمن مثّلوا خطوطًا خلفية تَحمي ظهره ولا يستطيع الوصول إليه مِن شيطان الإنس كان أو شيطان الجن، لأن ذلك الوسط يمثّل الحماية الطبيعية. هذا في علاقته بالمؤمن نفسه. أما في علاقة المؤمن به، فعليه هو أيضًا، أن يبذل كل جهده لينتج هذا الوسط بنفس النظام الذي وفّقه الله ﷻ فبنى به ذاته، أو بُنيت به ذاته؛ أيْ، يكون الإقراء، ويكون بعد ذلك القيام لله ﷻ بما قرأ، ويكون بعد ذلك الإنذار.. نفس النظام الذي خضع له، يخضع غيره له، فيبتدئ بتعليم أهله.

أول مَن يهتمّ به هي زوجته، فالزوج يهتمّ بزوجته، والزوجة تهتم بزوجها أولاً. وكذلك فعل رسول الله ﷺ؛ حيث جاء بأول ما نزل عليه إلى خديجة ﵂ يرجف فؤاده أو ترجف بوادره، فقال: "يا خديجة لقد خشيتُ

hiramagazine.com

على نفسي"، وأخبرها الخبر، فقالت ما قالت ﷺ. ثم بعد ذلك اهتمّ بمَن يساكنه وهو عليّ ﷺ الذي كان ابن عمّه وكان يسكن عنده. وكذلك اهتمّ بزيد بن حارثة ﷺ الذي كان مولى له، وغيرهما.. فاهتمّ أولاً بالأهل في تعليم ما جاءه، فهُم أول من وصل إليهم الخير. وكذلك يوم أن طُلب منه أن ينذر العشيرة الأقربين: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾(الشعراء:٢١٤) قبل أن ينزل عليه: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾(الشورى:٧).

وكل ذلك داخل في نظام التدرّج الطبيعي الذي به يسير نظام الإسلام. فعليه -إذن- أن يقي أهله، أن يعلّمهم الحق الذي جاء من عند الله ﷻ، وأن يعينهم ويحثّهم على العمَل بأقصى ما يطيق.. يفعل هذا مع زوجه ثم مع أبنائه. وهذا الترتيب أخذًا من قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان:٧٤)؛ إذ الذرية تأتي من الأزواج، واختيار الزوجات يكون قبل الإنجاب، ثم بعد ذلك الاهتمام بهنّ، والزوج والزوجة معًا عليهما مسؤولية الأبناء: "كلّ مَولود يُولَد على الفطْرة، فأبَواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه" (رواه البخاري).

إذن الاهتمام بالزوجة، ثم الاهتمام بالأبناء ومن يساكن، ثم الاهتمام بمن يخالط. والله ﷻ يحدثنا عن بيت رسول الله ﷺ النموذجي فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۞ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾(الأحزاب٣٣-٣٤). إذن توجد آيات تتلى في البيت، وتوجد حكمة تتلى في البيت، ويطلب الله ﷻ من أمهات المؤمنين في هذه الآيات أن يذكرن ذلك. إذن يوجد تعليم في هذا البيت، لأن رسول الله ﷺ بُعث معلّمًا، وهو القائل: "وإنما بعثتُ معلّمًا" (رواه ابن ماجة).

والبيت ليس دائمًا للأب، وإنما الإمامة لمَن له العلم، كما يُرشد إلى ذلك قول الله ﷻ في إبراهيم عليه السلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾(مريم:٤٣). فالذي عنده العلم هو الذي يُزكي ويُنفق منه، وهو الذي ينفع مجموع الأسرة؛ كان هو الأب، أو الابن أو الزوجة أو البنت.. المهمّ أن يكون في هذا البيت آيات الله تُتلى، وحكمة رسول الله ﷺ تطبَّق وتدرَّس، وأن يكون في البيت تعليم.

فالبيت يتغذّى بالشرع، ويحاول أن ينظّم حياته وفق الشرع، وهذه هي اللبنة الثانية في البناء؛ إذا كانت صلبة متينة فإنها إلى جانب اللبنة الأولى تقف بقوة في وجه كلّ محاولة لهدْم بنيان الإسلام، لأن هذه الروابط إنْ تماسكت على أساس هذا الدين، فإنّ النيل من جزئياتها يكون متعذّرًا إلا بعد فكّها أو تفْكيكها وهي محاولة يقوم بها الشيطان، حيث يسعى إلى تفكيك الأسرة بأشكال مختلفة، ويضعّف روابطها -أصولاً وفروعًا- بمفاهيم، وصور، وأشكال متعددة لا حدّ لها ولا حصر.. فيثور الأبناء على الآباء، ويفهم الآباء ألا يتدخّلوا في شؤون الأبناء، ويبنون على ذلك نظرياتهم التربوية.

حقًّا، إن كل مولود قد آتاه الله شيئًا، ولكن شتّان بأن نجعله ينمو عشوائيًّا، وبين أن نتدخّل في توجيهه وتربيته وفق ما تقتضيه طبيعته ومواهبه، فنسعى إلى إبلاغه كماله بواسطة التربية والتوجيه، لا إلى كَبْت مواهبه وإفساده وصرفه عما خُلِق له، وهذه مصيبة وليست تربية.

إن موقع الأسرة بالمفهوم الشرعي وفي النظام الإسلامي، هو موقع مركزي وحَلّ حاسم لمشاكل ابن آدم في الكرة الأرضية؛ لأن داخل هذا المفهوم يأتي مفهوم "صلة الرحم"، ومفهوم "الإيتاء"، ومفهوم "الترغيب في ذوي القربى"، و"إيتاء ذوي القربى".. وتأتي مفاهيم متعددة فتتدخل لتسدّ الحاجات الأساسية، وتهيّء الفرص الطبيعية لحياة إنسانية كريمة وسعيدة حقًّا، مَبْنية على أساس صحيح.

إذن، يتكون المجتمع، وتتكون الأمة من الأفراد ومن الأسرة أولاً. فهي الوحدة الثانية التي يجب الاهتمام بها، والبرمجة لها، والدفع في تقويتها، لأنها هي الوسط للنباتات الجديدة، والوسط الملائم الجيد للأولاد، والدرع الواقي لكلّ فرد يوجد ضمن المجموعة، وهي الكتلة الصلبة التي تقف في وجه كل مَن يحاول أن ينال من هذا الدين. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدرسات العلمية (مبدع) / المغرب.

hiramagazine.com

د. حذيفة أحمد الخراط*

قشرة الشعر.. أسبابها وعلاجها

تعدّ الإصابة بقشرة الشعر واحدة من أكثر الشكاوى الطبيعية المزمنة التي يعاني منها الرجال والنساء على حدّ سواء. وتشير الإحصائيات إلى أن انتشار هذه الظاهرة، يجعل منها المشكلة التي تحتل المرتبة الأولى في قائمة مشكلات فروة الرأس، إذ يشكو منها ثُلُث الأشخاص في مجتمعات العالم المختلفة.

وتَذكر مراجع عِلْم الأنسجة، أن جسم الإنسان يتكون من ملايين الخلايا التي تتحد فيما بينها كي تبني أنسجة الجسم وأعضاءه المختلفة. ومن عظيم خلق الباري تعالى، أنْ جعل لتلك الخلايا عمرًا محددًا تموت بعده ويتم استبدالها، ليحلّ محلها أخرى جديدة، وسرعان ما تتساقط الخلايا الميتة بعد أن تنفصل عن مجاوراتها من الخلايا الحية.

وينطبق مسلسل الأحداث ذلك، على جلد فروة الرأس؛ إذ تتجدد خلاياها باستمرار، ويتساقط عنها ما يموت من خلايا طبقات الجلد السطحية، وتظهر تلك الخلايا الميتة في صورة القشرة المعروفة. وبذلك نستنتج أن ظهور القشرة ضمن شعر الرأس لا يعدو في كثير من الحالات أن يكون ظاهرة طبيعية، لا تحمل بين طياتها أية دلالات مرَضية. وهي -إذن- صورة فسيولوجية من صوَر تجديد خلايا الجسم وتكاثرها.

ما أسباب ظهور القشرة؟

تبدأ مشكلة قشرة الشعر -عادة- في سنّ المراهقة، وتستمر إلى سنّ الأربعينيات، وتميل بعدها إلى التحسّن تدريجيًا.

وقد يزيد أحيانًا نشاط عملية تساقط الخلايا الجلدية من فروة الرأس، فتغزو بذلك القشور شعر الرأس بكثافة، فيصبح أشبه بملاّحة تَذرّ بحركتها الملح هنا وهناك. وقد كشف العلم الحديث النقاب عن جانب من أسباب ذلك، ومنه:

١- يؤدّي إهمال نظافة الشعر، وعدم غسله بالماء

وسائل التنظيف "الشامبو" بشكل مستمر، إلى نموّ المزيد من البكتريا والفطريات وتكاثرها ضمن فروة الرأس، مما يؤدّي إلى انفصال المزيد من خلاياها، وبالتالي زيادة معدّل تراكم القشرة وخلايا الجلد الميتة في نسيج الشعر.

٢- تشير بعض الدراسات الإحصائية المقارنة، إلى دور العوامل الوراثية في نقْل ظاهرة القشرة إلى الأجيال القادمة.

٣- يزداد ظهور القشرة بين صفوف من اعتاد تناول الأغذية الدهنية والوجبات السريعة، وأهمل تناول الفواكه والخضار الطازجة الغنية بالفيتامينات والمعادن اللازمة لصحة الجلد.

٤- تعتقد نظريات أخرى احتمال وجود علاقة بين تناول أقراص منع الحمل وبعض المشاكل الهرمونية في جسم الأنثى من جهة، وظهور قشرة الشعر من جهة مقابلة.

٥- قد تظهر القشرة نتيجة إصابة فروة الرأس ببعض الالتهابات، ومن أكثرها حدوثًا ما يُعْرف بالالتهاب الجلدي الدهني (Seborrhoic Dermatitis)، وتتصاحب القشرة هنا مع ظهور بقع حمراء في جلد الفروة.

٦- يمكن كذلك أن تؤدي الإصابة بداء الصدفية الجلدي (Psoriasis) إلى زيادة حدّة القشرة، وتسريع ظهور أعراضها المزعجة.

٧- تؤدي المبالغة في استخدام جهاز تجفيف الشعر (السيشوار)، والإكثار من استخدام صبغات الشعر الكيميائية، إلى ظهور أنواع من القشرة.

٨- قد تصاب بعض الحوامل والمرضعات بالقشرة نتيجة اضطرابات هرمونية.

مظاهر الإصابة بالقشرة

يشكو المصابون بقشرة الشعر، من ظهور قشور ذات ألوان مختلفة، فتكون بيضاء، أو صفراء، أو رمادية. كما يشيع لدى الكثير منهم ظهور حكّة مزعجة، وقد تسبّب تلك الأعراض حرجًا اجتماعيًا، يدفع المريض إلى استشارة طبيب الأمراض الجلدية.

ولتكرر الشكوى من حكّة فروة الرأس تبعات عديدة؛ قد ينتج عن ذلك ظهور جروح صغيرة في جلد الرأس، ولا سيما إن كانت الأظافر طويلة، وقد تغدو

صورة تظهر التهاب فروة الرأس نتيجة الفطريات الجلدية، وما يصحبه من تفاقم ظهور قشرة الشعر.

صورة لقشرة الرأس كما تبدو عن قرب.

صورة تظهر الإصابة بداء الصدفية الذي يتصاحب مع ظهور القشرة.

hiramagazine.com

تلك الجروح منافذ لدخول البكتريا أو الفطريات التي تعيش في الشعر أو على فروة الرأس، مما يؤدي إلى حدوث التهابات جلدية. وقد تنتشر هذه الالتهابات -إن لم يتم الإسراع في معالجتها- فتصل إلى جلد الجفون والأذن والأنف.

أنواع قشرة الشعر

يعتقد الكثيرون أن الإصابة بقشرة الشعر داء مُعْد، وينتقل من شخص مصاب لآخر سليم، فيَعْمد هؤلاء إلى الابتعاد عن المصابين بالقشرة خوفًا من إصابتهم بها، وهذا معتقد خاطئ، ولا أساس له من الصحة. ولقشرة الشعر عمومًا أنواع عدة منها:

١- قشرة الشعر الدهني (Oily Dandruff)، ويحدث فيها زيادة نشاط غدد الجلد الدهنية (Sebaceous Glands)، ويميل جلد الفروة هنا إلى الظهور باللون الأحمر.

٢- القشرة الجافة (Dry Dandruff)، وتكثر الشكوى منها في فصل الشتاء، ويحدث هنا انسداد فتحات الغدد الدهنية في فروة الرأس، ويؤدي هذا إلى جفاف الجلد نتيجة عدم وصول الإفرازات الدهنية إليه، ويشكو المريض بذلك من جفاف الشعر وتساقطه، وتميل القشرة الجافة هنا إلى الظهور بلون رمادي.

٣- قد تظهر قشرة الشعر في فروة الرأس لدى الطفل الرضيع (Cradle Cap)، ويُعْرف ذلك في بعض الدول باسم "خبز الرأس"، لأن القشور تتراكم بكثافة في هذه الحالة، وتتجمع لتعطي شكلاً يشبه فتات الخبز الصغير، وسرعان ما تتحسن هذه الحالة تلقائيًا، لتظهر بعدها فروة رأس الرضيع بصورة طبيعية.

معالجة قشور الشعر

ليس ثمة دواء معيّن يقضي تمامًا على ظاهرة القشرة، فيعالجها دون أن تعود للظهور ثانية، إذ ليس بإمكاننا أن نوقف انقسام خلايا فروة الرأس، أو أن نمنع تساقط ما يموت منها. وجميع ما يوصف من أدوية وعقاقير دوائية أو عشبية، ما هي إلا علاج مؤقت ومخفف للأعراض المزعجة التي يشتكى منها المريض.

وحجر الأساس في معالجة قشرة الرأس، هو تفهّم حقيقتها، وإدراك أنها ليست داء، بل ظاهرة طبيعية تتفاوت حدّتها بين جسم وآخر، ويجب التعامل معها وَفق الأسلوب الصحيح.

وتُعد المحافظة على نظافة الشعر، وغسله المستمر بالماء وسائل التنظيف (الشامبو) المناسب، ركيزة العلاج الرئيسة. ويهدف ذلك إلى إزالة ما يتجمع من القشرة في فروة الرأس، والتخفيف مما يصاحبها من حكة مزعجة. ويندرج تحت عنصر نظافة الشعر وفروة الرأس، الحرص على استعمال أدوات نظيفة كالأمشاط، والأدوات والأجهزة المستخدمة في صالات الحلاقة والتجميل، ويؤدي إهمال ذلك إلى انتقال الأمراض الجلدية المعدية التي قد تسوء معها بعض حالات القشرة.

كما يجب الحرص على نظافة أغطية المخدات والأسرّة والملابس التي تمس شعر الرأس بصورة مباشرة.

ولتعريض الشعر لأشعة الشمس بصورة معتدلة أثر مفيد في نجاح خطة العلاج، إذ يُسهم ذلك في تغذية فروة الرأس، والتخفيف من أعداد البكتريا والفطريات التي تنمو ضمن شعرها.

ويَنصح الأطباء لمعالجة حالات القشرة الشديدة، باستخدام بعض أنواع الشامبو، أو المحاليل الحاوية لمادة الكبريت، أو حمض السالسليك (Salicylic Acid)، أو عنصر السلينيوم (Selenium)، وجميعها مواد تخفف من أعراض القشرة، ولا تنهي ظهورها ثانية كما أسلفنا.

كما يجب على طبيب الأمراض الجلدية في حالات القشرة الشديدة، فحص المريض بغية استبعاد احتمال الإصابة بالفطريات الجلدية أو بداء الصدفية، وتقديم العلاج اللازم في حال ثبوت ذلك التشخيص.

ومما يساعد أيضًا على التخفيف من قشرة الشعر، تناول غذاء صحي متوازن وغني بالفيتامينات والمعادن المتنوعة، وممارسة الرياضة بصورة معتدلة، والتخفيف من تعريض الجسم للقلق والأرق والضغوط النفسية، والتقليل من استخدام مراهم الشعر (أو ما يعرف بالجل)، والبخّاخ المستخدم لتثبيته، والصبغات الكيميائية بأنواعها المختلفة. ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

د. سليمان الدقور*

يا إنسان يا سيّاح.. يا ظامئًا لا يُروى، ويا قلبًا من الجمال لا يشبع. الكون كله مساكبُ جمال، ورحيق كمال. بعين قلبك فانظرْ وتأملْ، وصفحاتِ الكون طالع، تفهَّمْ وتفرَّسْ، وزد علمًا، واغْزُر معرفة، ثم امضِ راشدًا، وغادر وافرًا. فمرّةً أخرى إلى هذا المكان لن تعود! ولا عليك من مُغمَضي العيون، وفاقدي القلوب!

الموازين

بين إنسان الغاية والإنسان المثالي

إن الكتابة المنهجية التي يكتب بها الأستاذ فتح الله كولن تحتاج إلى قراءة منهجية خاصة؛ فهو يكتب مقالاً يريد منه التأكيد على قضية محورية خاصة، لكنك تجده لا يفوّت الفرصة عليك، إذ يركز على الأساسيات التي يراها لازمة لتحقيق الخدمة لهذا الدين. فتجد في المقال الواحد عمقًا يقف بك على حقيقة فكره في منطلقاته ووسائله وآلياته، وفي موازينه من حقائق الفهم والتصور، وحقائق التربية والتزكية، وحقائق الفاعلية والحركية. وبين يدينا هنا مقالان للأستاذ لعل الكثير قد قرأهما

أو اطلع عليهما، واللافت فيهما هو تلك الصلة العميقة الأصيلة بينهما، بما يدفعك لفهم تلك الروح التي تسري في كلمات هذا المفكر الكبير، وهي روح تبعث في نفسك حقيقة الصحبة التي عاشها، وتمثلها ذلك الجيل الأول؛ جيل الصحابة رضوان الله عليهم.. حيث يعكس لك الأستاذ فتح الله "الصحبة"، حالة مستمرة لا تقف عند حدود الأشخاص والأفراد، وهي حينئذ تجسيد للفكرة في اندماجها مع الذات واندماج للذات مع الفكرة، حتى تصبح هي هو، ويصبح هو هي.

المقال الأول بعنوان "صورة قلمية لرجل القلب"[1]، والمقال الآخر هو "المجتمع المثالي"[2].

ويمكن لتحقيق الفائدة، أن ننظر بخطين منهجيين نحو سبر حقيقة المعنى الذي يرمي إليه الأستاذ في هذين المقالين.

الخط الأول، خط أفقي يجمع الصلة بين حقيقة "رجل القلب" و"رجل الإحسان" وبين "المجتمع المثالي".

والخط الثاني، خط عمودي يغوص في عمق كل مقال ليكشف سره وهمَّ الأستاذ فيه.

في القراءة الأفقية

لا بد من التأكيد هنا بشكل واضح، أن القراءة المتأنية الفاحصة الكاشفة عن الدلالات الموضوعية لفكر الأستاذ فتح الله كولن، هو ما تحتاجه هذه الكتابات العميقة المؤثرة، ذلك أن مطلوبها الرئيس، صناعة الإنسان وإعادة بنائه وفاعليته.

والجمع بين المقالين، يوضح لك القراءة الأفقية التي توقفك على حقيقة التكامل في بناء هذا الإنسان الذي يمثل "الرجل المثالي" وهو ذاته "رجل الإحسان" أو "رجل القلب". فإذا كان المقال الأول "صورة قلمية لرجل القلب" يركز على التربية الروحية والتزكية النفسية، فإن المقال الآخر "المجتمع المثالي" يبين أهمية الفهم والوعي والإدراك العقلي في هذا البناء.

اِسمع إليه وهو يحدثك عن حقيقة التربية الروحية حيث يقول: "رجل القلب بأُفقه وإيمانه وتصرفاته، يمثل بطولة الروح والمعنى. إن عمْقه وسعته لَيْسا من ناحية

لا يوجد في عالم رجل القلب ادعاءات مثل "فعلتُ أنا"، "أنجزت أنا"، "نحجت أنا".. فهو يفرح بكل إنجاز حققه آخرون وكأنه هو الذي أنجزه، ويعد نجاحات الآخرين نجاحًا له.. لا يدخل في أي مناقشة مع الذين يشاطرونه فكره وطريقه، بل يحاول إزالة عيوبهم وتكملة نواقصهم، ويتصرف تجاههم تصرف عضو الجسد نحو سائر الأعضاء بروح الإيثار.

حراء

معلوماته ومكتسباته، بل بغِنى قلبه وصفاء روحه وقرْبه من الحق تعالى. بطل القلب الحي يكون مبَرمجًا حسب الحياة القلبية والروحية، عازمًا على البقاء، بعيدًا عن كل المساوئ المادية والمعنوية". فليس المؤثر من احترق عقله بالمعلومة، بل الذي احترق قلبه بها.

لكنك تجده في مقال "المجتمع المثالي"، يحدثك عن بناء هذا الإنسان في جوانب فكره وفهمه وإدراكه وتصوراته، ثم يبين لك تجليات هذه البصيرة، وهذه التجليات هي إدراك كنه الأشياء وحقيقتها: "الإنسان المثالي، أو الإنسان الكامل -كما عبّر عنه القدماء- هو المتحلّى بصفات ملائكية.. هو بطل البصيرة وفارس الإدراك.. هو المتنبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبرت عنها الآية الكريمة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾(التين:٤)".

في القراء العمودية

ونذهب مباشرة إلى الخط الثاني في قراءة المقالين، وهي الخط العمودي الذي يوضح لنا حقيقة كل مقال ومقصوده بعد أن لمسنا فيهما تكامل الفكر وتعانقه.

نموذج الإنسان وتمثلاته

استطاع الأستاذ فتح الله -بكل عبقرية- أن يختزل في خلاصة ما يتطلبه الوعي بحقيقة صناعة المسلم الفاعل، فهو يقدم "نموذج" هذا الإنسان، ثم يقدم "تجلياته" أو "تمثلاته".

وفي سياق الإفصاح عن "نموذج" هذا الإنسان يذكر أولاً مقوّماته، وثانيًا صفاته، وثالثًا منهجه، ورابعًا هدفه. وهو يذكر في "المقومات" التي تقوّم بها حقيقة

hiramagazine.com

هـذا الإنسـان "المعلومـات والمكتسـبات"، و"غنى قلبه" و"صفاء روحه".

وفي "صفاته" يعدد الكثير منها:

• فهو مبرمج حسب الحياة القلبية والروحية.

• وهـو عـازم على البقـاء بعيـدًا عـن كل المسـاوئ المادية والمعنوية.

• وهو حذر على الدوام من الرغبات الجسدية.

• وهو متواضـع باهر ينكر ذاته بقوة.

• وهو صاحب أخلاق عظيمة، صابر ووقور.

• وبـدل الـكلام الكثيـر تـراه يعيـش حسـب عقيدتـه وإيمانه.

وحياتـه الروحيـة ليسـت خمولاً أو كسـلاً إيمانيًا، بل هـي حركـة روحيـة فاعلـة. فهـو رجـل الحركـة والدعوة والإيمان. يحترق بهدوء ويدفئ أرواح كل من يلجأ إليه، وينفث فيها الحرارة.

أمـا "منهجـه"، فهـو إقامة الحق، لا يفكـر في حركاته وسـكونه إلا فـي الحـق؛ كيـف يقيمـه في الدنيا وينشـره. مسـتعد للتخلّي عن رغباته ومطالبه في سـبيل ذلك. فتح صـدره للجميـع، منسـجم مـع الجميـع، يحـب كل من يقدم خدمة لدينه ووطنه وغايته السـامية.. ومـع هذا فلا يبتغي أجره إلا عند الله تعالى.

وأمـا "هدفـه"، فهـو إرضـاء الله تعالـى؛ تجـده متلهفًـا لنيـل رضـاه. ومن ثم نراه يربط جميـع حركاته وسـكناته فـي كل أمـر وفـي كل ظـرف وحين، برضـاه تعالى. وهو مستعد لأن يضحّي بكل شيء للوصول إلى هذا الهدف. فأنـت تجد الأسـتاذ هنا، قطـع شـوطًا كبيـرًا في ربط هذا الإنسان بأن لا يتعلق بالجزاء الدنيوي مهما بلـغ حجمه، فالنصـر والتمكيـن مـن باب تحصيـل الحاصل إذا صدق هذا المسلم في ابتغاء وجه الله في كل ما يعمل.

أمـا في سـياق "تجليات" أو "تمثـلات" رجل القلب، فهي في خمسة تجليات وتمثلات:

١– مع نفسه؛ فهـو يعـرف طريقه، يتطلـع دومًا إلى المـاوراء. مرتبـط برضا الحق تعالى. دائم السـير، يقطـع المسـافات تلـو المسـافات مثل جـواد أصيـل لا يعـرف الفتور حتى يبلـغ هدفه ومبتغاه، دون أن يلتفت إلى شيء من حطام الدنيا.

٢– مع ربـه وخالقـه؛ حيـث هدفـه إرضـاء الله تعالى، فيعيـش فكـرة الإخـلاص سـلوكًا دائبًـا دائمًـا لا تفتر فيه همتـه. يبـدي حرصًـا فـي هـذا الصـدد ولـو أدى بـه إلـى الموت.

٣– مع إخوانه العاملين معه في ذات الحقل؛ حيث لا يوجـد فـي عالم رجل القلب ادعاءات أمثال "فعلتُ أنا"، "أنجزت أنا"، "نحجت أنا".. فهو يفرح بكل إنجاز حققه آخـرون وكأنه هـو الذي أنجزه، ويعد نجاحات الآخرين نجاحًا له.. ويتبعهم تاركًا لهم شرف الريادة ومرتبتها.. لا يدخل في أي مناقشة مـع الذين يشاطرونه فكره وطريقه، ولا يشعر نحوهم بأي حسد. على العكس، يحاول إزالة عيوبهـم وتكملـة نواقصهـم، ويتصـرف تجاههم تصرف عضو الجسد نحو سائر الأعضاء بروح الإيثار.

٤– مع الناس من حوله؛ فرجل القلب يبقى على الدوام محترمًا أفكار الآخرين ومناهجهم، موقرًا لهم ومسـتعدًّا للعيـش المشـترك معهـم. ولا يفتر عـن البحث عن طرق التعاون والمشترك مـع من يقاسمهم الفكر نفسه.. يبحث عن طرق التعاون والمشاركة هذه، ويطور معهم مشاريـع العمـل المشـترك واضعًـا كلمـة "نحـن" بـدلاً عـن "أنـا".

٥– مع الحيـاة الدنيـا؛ حيث تراه نـذر جميـع أفكاره ومشـاعره وسـلوكه في سـبيل رضا الله تعالى، بحيث لو أعطيتـه الدنيـا ومـا وراءهـا، لمـا اسـتطعتَ زحزحته عن هدفـه، بـل حتـى لـو أعطيتـه الجنـات، لمـا انحـرف عـن وجهته وعن طريقه.

مقومات الإعداد القرآني لرجل القلب

أمـا القراءة العمودية للمقـال الآخر "المجتمـع المثالي"، فتوقّفنا على صلة قوية ومباشرة مـع "رجل القلب" الذي يسـمّيه الأسـتاذ أيضًا "رجل الإحسان"، فهو يحسن دوره ورسالته.

وهنـا فـي هذا المقال، يؤسـس لنا الأسـتاذ "مقومات الإعـداد القرآنـي" لهـذا الفـرد، التـي تجعـل منـه الرجـل المثالي الذي يصنـع المجتمـع المثالي.

ويطلـق علـى هذا الإنسـان مصطلـح "إنسـان الغاية"، موازنًا بينه وبين "إنسـان الجسـد". وأول ما يشكّل إنسان

hiramagazine.com

الغاية، تلك التصورات والمعتقدات التي يؤمن من خلالها أنه الإنسان المرشّح الوحيد بين جميع الكائنات للعروج إلى آفاق لانهائية؛ آفاق الخلافة والاستخلاف. أجل إنه إنسان ذلك الوعي وتلكم البصيرة.

ثم إن اكتشافه لمواهبه وقدراته وإمكاناته واستثمارها، يعد الأمر الثاني مما يشكل هذا "الإنسان الكامل" كما يسمّيه الأستاذ. وهو واع وعيًا تامًّا أنه مجهز بطاقات وقدرات مفتوحة إلى اللامحدود.. ومستوعب سبل استثمار "المواهب الأولى" التي منَحها إياه الفاطر ﷻ. فهو يملك ثقة لا حد لها، وطمأنينة لا غاية بعدها.

وثالث المشكِّلات تلكم، هي القوة الروحية البناءة، أو هو البناء الروحي التزكوي. "فأنت تجده مشتعل الفؤاد؛ قد شيد من بوارق الحكمة التي لا تكف عن الوميض في سماء وجدانه، ومن نسمات الإلهام التي لا تنقطع عن تجلياتها في أرجاء روحه، صروحًا نورانية شامخة.. إن روحًا قد وصلت تلك القمة السامقة، ليستوي لديها الإحسان والحرمان".

وأما آخر هذه المكونات، فهي تلك الحركية والفاعلية، والتأثير العملي الذي يحرص "إنسان الغاية" أن يؤدي فيه دوره ورسالته. فهو قد فرّغ كل وقته ووظّف كل طاقته لتحقيق سعادة الأمة. "وهو ينطلق ليهمز جواده، مقتحمًا به الصفوف، طعّانًا للصدور، حصّادًا للرؤوس، ومزلزلاً قلوب الظلمة بزئير كزئير الأُسود المزمجرة".

بناء تام متكامل

وهكذا يكون "الإنسان المثالي"، وهكذا يكون "إنسان الذات"، وهكذا يكون "رجل القلب" و"رجل الإحسان"، لتتكامل بعد ذلك مكونات هذا المخلوق الذي خلقه الله لغاية كبرى عظيمة، يرى نفسه مسؤولاً عن أن يصبغ العالم بصبغة الإسلام والإيمان. ■

(*) رئيس قسم أصول الدين في كلية الشريعة بالجامعة الأردنية / الأردن.

الهوامش

(١) مجلة حراء، العدد: ١٤ (يناير-مارس) ٢٠٠٩.

(٢) مجلة حراء، العدد: ٣١ (يوليو-أغسطس) ٢٠١٢.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

الأيام ما قبل الأخيرة

ظلمة بالأرض أحاطتْ..
أمواجُها تعالتْ،
ومنابتَ النور أغرقتْ
وسنابلَ الروح حصدتْ..
حتى إذا أَزِف الزمن،
زرْعُنا نبَتْ، والسنْبلُ علا،
والنور دفق، والضحى انبلج..
قلنا: "صدَق وعدُك يا نبيّ،
وصدقَتْ بُشراك يا ولي!"

* * *

أديب إبراهيم الدباغ*

آه.. أيتها الشهرة القاتلة، وأيتها الشهوة الكافرة، وأيها الطمع الخالي من الشرف! كم من روح مر من دياركم فأصابه الجفاف! وكم من قلب سقط مثل أوراق الخريف! وكم من قامة سامقة أغرتْها ضحكاتكم فتركت المعبد وهرولتْ إلى حاناتكم! كم من شجاع جاءكم فتحوّل جبانًا رعديدًا! وكم من شابٍّ شاخَ بسببكم وفارق الحياة خائبًا خاسرًا.

الموازين

سيد الأزمان

تَقَطَّعت أنفاس الزمن؛ راكضًا لاهثًا، جَوَّابَ عوالم، عصّافًا بالحضارات، هدّامًا للمدنيات، بَنَّاء هنا هدَّامًا هناك، صوّالاً جوّالاً في الأمم والشعوب، كرّارًا فرّارًا، مدًّا وجزرًا، عطاء وأخذًا، محّاء نَشَّاء، ضحَّاكًا بَكَّاء، ناشِر عِبَر، وملقي دروس، يؤنس ويطرب، يحزن ويشجي، دوّارًا بين الناس باللحود، ومشَّاء بينهم بالمهود.

حتى إذا أعياه التعب، وأخذ منه النصب؛ توقف عند غار "حراء" مبهورًا، يسترجع الأنفاس، ويستروح الأفياء، سائلاً الدقائق والساعات، واللحظات والبرهات، عن المتحنث العظيم، هل آن أوانه، ودقت ساعة انبعاثه؟ فيُطّل على العالم من غاره، حتى إذا غادر الغار، وانحدر إلى مكة كالصبب، وقد غشيته قشعريرة اللقاء بناموس السماء.. تتبع الزمن خطاه، وجرى حيث جرت به الشعاب والآكام، وجاء بيته، وأقبلت خديجة بقلبها الرحيم وصدرها الحنون، متسمعة إليه مشفقة عليه وهو يقول: دثروني دثروني، زملوني زملوني.

في هذا المدثر يقوم العقل كله، وينهض الرشد كله. وفي سماء روحه الصافية يتألق روح العالم، وعلى إيقاع أنباض قلبه يشدو قلب الكون، وينشد ويترنم. وعذابات الإنسان تجد في يده الآسية حنانًا فوق كل حنان، وبلسمًا من كل العذابات. والزمن نفسه شرع يتجرع أنفاسًا مترعة بالهواء وهو في هيئة ترقّب حادّ لما ستأتي به الأيام من استنهاض للعالم، وتجديد للدنيا، وبناء للإنسان، وتصحيح لعقائده، وإرهاف لمشاعره،

وتهذيب لخلقه، وتثقيف لعقله، وتوسيع لمداركه.

هذا نبي الزمن وكل الأزمان، ورسول العالم وكل العوالم، أعاد للنبوات شبابها ويفاعتها، وللربوبية قدسيتها ونزاهتها.. قلبه مستودع أسرار الله، وعلى لسانه يدور كلامه، قدّم لغوامض كتاب الوجود، وأدار مفاتيح الفهم في مغاليق الأكوان.

البشرية التي فقدتْ اتجاهها، وانحرفت عن مساراتها، وزاغت عن ربّها، وجدتْ في تعاليمه، وفي كتاب ربه سبل الهداية وطرائق السلامة.. والسماء المجدبة اهتزتْ ورَبَتْ، وأبرقتْ وأرعدتْ؛ فأمطرتْ وردًا، وسقتْ جدبًا، وروتْ ظمَأً، وأضاءتْ نورًا، وهتكتْ ديجورًا، وأزاحتْ ظلامًا مركومًا، وشفتْ قلوبًا معلولة، وضمائر مطموسة.. وحركت عقولاً موقوفة، وأرواحًا مغلولة.. ووجد الإنسان موقعه من الأرض، ومكانه من الكون، ومحلَّه من الوجود، ومكانته من الله.

لقد أخذ الزمنَ معه، وطواه في روحه العظيم، وارتفع به فوق كل الأزمان، حتى غدا قرنه أعظم قرون البشرية، علوَّ روح، وسموَّ نفْس، ويقظة ضمير، وجمالَ خُلُق، وتوحيدًا للإله، وتنزيهًا للربوبية، وتحطيمًا للصنميات.. ومطامحُ الوجدان البشري الرفيعة وجدتْ نفسها في وجدانه الطاهر الشريف. والحكمةُ العالية، والعقل الحصيف وجدا مكانهما في حكمة عقله، وعبقرية ذهنه. إنه أطلق القيم المطلقة من حبوسها، وحثّ الإنسان على الارتفاع نحوها.. والأخذ بها، والتخلق بأخلاقها، والخلاص من المحدودات والنسبيات، والانطلاق من محابس الأرض إلى فضاء العوالم والأكوان.

وهتف بأولئك الخالدين إلى الأرض، واللاصقين بالتراب، أنْ يرفعوا رؤوسهم، ويحرروا أنفسهم، ويعلوا بمطامحهم، ويستجيبوا لأشواق فطرهم، ويصغوا لحنين أعماقهم إلى الخلود والبقاء.. وأنْ يتفقهوا في حقيقة ذاتهم، ويستعدّوا لمآلاتهم ومصائرهم. إن روحه العظيم مفعم بقوى التجديد والاقتحام، والتصميم على توطيد أركان الحقيقة على ظهر الأرض، مهما كابد من آلام، ووقفت بالضدّ منه جموع الجاهليات والعنجهيات والهمجيات.

إنه الحق الدامغ الذي يَدْمَغُ به الحق ﷻ الباطلَ، فإذا هو زاهق، وهو اليقين الحق الذي يسعى إلى إنقاذ عالم الإنسان من التخبط في مهامه الشك والاضطراب، وهو الطهر السماوي الذي يمحو ما تدنسه أيدي الماسكين بخناق الأرض من الجبابرة والطغاة.

والإنسان المعتِم خابي الضوء بدأ يتوهج من جديد بتعاليمه وأفكاره، فلم تعرف العبقرية في أي قوم من الكثرة كما عرفتها في أصحابه الناهلين من منهله والشاربين من كوثره، حتى قال يزكيهم: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم". إنهم فخر الجنس البشري بلا جدال، أصحاب العبقريات الروحية التي أغنت العالم وأثرته، وقادت مساراته الروحية ما يقرب من ألف عام.. فقد كانوا القوة المتحركة في روح الفرد وفي روح الأقوام والشعوب.

وللأزمنة أرواح تستمدها من عظماء الروح والفكر فيها، ولها إرادات تستمدها من أصحاب الإرادات العالية والقوية. وهذه الإرادات في صراع أبدي يصارع بعضها بعضًا، ويهيمن بعضها على بعض، وقد يستقوي بعضها ببعض.

والإنسان هو المحور الذي تدور عليه هذه الأزمنة في صراعاتها، ومن خلال هذه الصراعات تورق شجرة الأفكار، وتزهر براعم الخواطر والإلهامات، ولا زالت الأزمنة الروحية للأنبياء والرسل ﷺ تدور مع الإنسان حيثما دار.. ولا زالت تمد أزمنة الإنسان مهما غالت في ماديتها بنفحات روحية تعمل على تلطيف غلظتها وقساوتها.

وسيد الأزمان قاطبة، وأعظمها هيمنة، وأشدها امتدادًا، وأكثرها إثارة واستنهاضًا، إنما هو زمان محمد ﷺ. فهو زمان حضوري دائم الحضور على مدار الزمان، كما أنه سرمدي الامتداد، يستمد سرمديته من أزلية القرآن وأبديته، لذا تبوأ محمد عليه الصلاة والسلام عرش الأزمان. هذا النبي الذي ختمت به النبوات، ولكن لم يُختَم زمانُه ولا أثرُه وتأثيره في كل الأزمان وإلى قيام الأزمان بقيام الساعة. ■

(*) كاتب وأديب / العراق.

hiramagazine.com

د. عبد الحميد عشاق*

في تجديد الخطاب الدعوي (1)

ما تزال قضية الأسلوب في الدعوة إلى الله تعالى، تمثل همًّا مؤرّقًا من هموم الأمة الرئيسة، وما تزال تفرض نفسها على مسيرة العمل الإسلامي في أبعاده وأنحائه ومجالاته المتعددة، بسبب ضغط المتغيرات الكونية، والتحولات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تكتنف المجتمعات المسلمة في أوضاعها الخاصة والعامة، الأمر الذي يشعر المؤسسة الدعوية بالحاجة الماسة إلى مراجعة خططها وأهدافها وأولوياتها، ومراجعة موقعها من المجتمع، واستنفار طاقاتها الفكرية لمعرفة كيفية التعامل مع الواقع بأساليب وصيغ جديدة تنسجم مع أنماط واتجاهات التفكير فيه، وتتفتح على أسئلته وحاجاته، وتتفاعل مع مشكلات الأجيال الصاعدة وطموحاتها، وتستشرف المستقبل من بعيد، لتُحوّل

الإستراتيجيات المضادة والاتجاهات المعارضة إلى اتجاهات ملائمة أو على الأقل مهادنة مصداقًا لقوله جلّ وعلا: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٤-٣٥).

وقبل أن أتحدث عن تصوّري لما ينبغي أن يكون عليه المشهد الدعوي عمومًا، أحبّ أن أنوّه بأن المناهج تتنوع، والأساليب تتعدد بتعدد أضرب الاجتهاد في هذا الباب؛ فالمجال واسع، والمهيع لاحب، والمجتهد فيه مأجور غير مأزور؛ ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً﴾(الإسراء:٨٤).

والحقيقة أن أصل المشكلة -في تقديري- بخصوص أزمة الخطاب الدعوي، سواء كان في منبر الجمعة أو في غيره، إنما يعكس "أزمة فكرية" لدى أصحابه، أو على حد عبارة الأستاذ مالك بن نبي"مشكلة ثقافة"[1]. ومشكلة الثقافة في العالم الإسلامي هي مشكلة حضارة بجميع أبعادها، لأن الملاحظة تهدي إلى أن حالة التخلف التي تعاني منها المجتمعات المسلمة، هي حالة بنيوية لا تمس قطاعًا دون غيره، بل تظهر على جميع الصّعد لدى المثقفين والمتعلمين والسياسيين والخطباء والعمال والفلاحين.. وهذا وجه تسمية هذه الحالة بـ"مشكلة ثقافة"، من حيث إن الثقافة لا تعني في مدلولها الأفكار فحسب، وإنما هي أعم من ذلك وأوسع؛ إذ تشمل أسلوب الحياة والسلوك الاجتماعي العام الذي يستصحبه الإنسان في مختلف تصرفاته ومواقفه وأحواله.

ومعلوم أيضًا أن الموضوع في خطابنا الدعوي الإسلامي يتميز بالسعة والشمول بقدر سعة رسالة الإسلام ومقاصده، فهو يشمل "الإنسان" الفرد بجسمه وعقله وروحه ووجدانه وحقوقه الضرورية، ويشمل الأسرة بعلائقها الرحمية والأبوية والزوجية، ويشمل المجتمع بطبقاته وعلاقاته السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، ويشمل العالم قاطبة باعتباره دار تعارف وتبادل للمنافع؛ فهو يتوجه بالدعوة إليه، ويقيم العلاقات معه على أساس قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ

مسؤولية أهل العلم وأهل الدعوة، تعبيد الطريق للناس للفوز برضا الله تعالى، فهذا هو الأصل الأكبر، والمقصد الأعظم للمشروع الدعوي الإسلامي؛ دلالة الخلق على الحق -أي على الله تعالى- وتوحيدهم له، وتعظيمهم إياه، حتى يكون الله أحبّ إليهم مما سواه.

حراء

اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(الممتحنة:٨).

وقد يتطرق هذا الخطاب لقضايا عقدية تتعلق بأصول الإيمان وأمور الغيب، وقد يتعرض لقضايا أخلاقية تتصل بالقيم العليا التي تشكل أساس اجتماعنا وهويتنا، وقد يتعرض لقضايا اجتماعية تتعلق بانتشال المجتمع من درك الدهرية المادية وحضيض الاستهلاكية النفعية، وحل مشكلاته من الفقر والجهل والمرض والفساد والظلم الاجتماعي.

فالخطاب الإسلامي إذن، ليس مقصورًا على شؤون الغيب وقضايا الروح -كما قد يتوهم بعض الناس- بل يتسع ويمتد ليواكب حركة الاجتماع الإنساني في شتى مجالات الحياة بمختلف أبعادها ومظاهرها.

وبعد؛ فإن هذه المقالة تروم التذكير بالمقدمات المحكمات الضرورية، والمقاصد الجليات القاطعة التي يجدر بالخطاب الدعوي والعمل الدعوي أن ينطلق منها في مبادراته التجديدية والترشيدية التي أصبحت ضربة لازب نتيجة التغيرات العميقة والتطورات الهائلة التي اعترت حياتنا الخاصة والعامة، حيث أصبحت تدار على مفاهيم جديدة كـ"التقدم" و"التنمية" و"الديمقراطية" و"المواطنة" و"حقوق الإنسان"، وتداخلت العلاقات الدولية، واشتدّ التمازج بين الثقافات والأمم، وأضحت الأنظمة والمواثيق الدولية، ونظم المبادلات والمعاملات جزءًا من التشريعات والقوانين الوطنية.. فغدت إدارة الحياة الاجتماعية تتبع الرؤى الفلسفية والعلوم السياسية وعلوم الإدارة والاقتصاد والحقوق من جهة، ومعرفة

hiramagazine.com

القيم السياسية والإنسانية المعاصرة من جهة أخرى.

واعتبارًا لما سبق، أودّ أن أعرض تصوري المتواضع، لإعادة هندسة الفعل الدعوي، وتجديد منهجه وأدائه وأثره، انطلاقًا من ثلاث شُعَب أو ثلاثة أصول لا يغني فيها أصل عن أصل، وهي:

الأول: وضوح الرؤية وتحديد القصد.

الثاني: العمل من خلال فقه "التوصيل" كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(القصص:٥١). وهذا أصل له تعلّق بوسائل العمل الدعوي وتراتيبه وخططه ومؤسساته.

الثالث: المنهج الدعوي من حيث الأخلاق بقسميها أخلاق الفكر، وأخلاق الفعل.

١-وضوح الرؤية وتحديد القصد

هو أساس المنهج كله، وملاك الدعوة كلها، وإليه يشير قول الله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(هود:٨٨)، وقوله تعالى على لسان الرسل عليهم السلام: ﴿مَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾(يس:١٧)، أي الواضح البين الذي لا غموض فيه كما قال العباس رضي الله عنه موقوفًا: "لم يمت رسول الله ﷺ حتى تركّكم على طريق ناهجة"[٢] أي بينة واضحة.

فبداية البدايات، أن يكون الداعية على بصر مما يدعو إليه، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾(يوسف:١٠٨)، أي على بيّنة من مقاصد أمره وشرعه. ومقصد الداعية إلى الله الأسمى هو الدعاء إلى الدار الآخرة؛ إذ هي دعوة الله جل جلاله كما قال: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلاَمِ﴾(يونس:٢٥)، ودعوة رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام. فمسؤولية أهل العلم وأهل الدعوة، تعبيد الطريق للناس للفوز برضا الله تعالى، فهذا هو الأصل الأكبر، والمقصد الأعظم للمشروع الدعوي الإسلامي؛ دلالة الخلق على الحق -أي على الله تعالى- وتوحيدهم له، وتعظيمهم إياه، حتى يكون الله أحبّ إليهم مما سواه. وهذا الأصل قاضٍ على كل ما ينبني عليه، ولا يجوز إلغاؤه أو التقليل منه بتضخيم فروعه وتقديمها عليه، أو حتى مساواتها به.

وزيادة في توجيه هذا المعنى وتوضيحه، أستشهد بكلمة للشيخ سيدي عبد السلام بن مشيش رحمه الله، حيث قال: "من دلّك عَلى العَمَل فقد أتعبَك، ومن دلّك على الدنيا فقد غشّك، ومن دَلّك على الله فقد نَصَحَك"[٣]؛ لأن الدلالة على الله تعالى، هي دلالة على معرفته بما يليق بجلاله وجماله، والترقي في مقامات عبوديته، إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا. والدلالة على العمل، قد يُنسي العاملَ في ربّ العمل ويَشغَله عمله عن أن يكون له ذاكرًا. وهذا الضرب من العمل في الشرع، لا فائدة من ورائه ولا طائل؛ "رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع" (رواه الإمام أحمد). ولهذا قال ابن أبي جمرة الأندلسي: "وددت أنه لو كان من الفقهاء من ليس له شغل إلا أن يعلم الناس مقاصدهم في أعمالهم، ويقعد للتدريس في أعمال النيات ليس إلا، فإنه ما أتي على كثير من الناس إلا من تضييع ذلك"[٤].

ويمكن القول بأن بعض الأنماط من الخطاب الدعوي المعاصر، نسي أنه خطاب دعوة ودلالة على الله تبارك وتعالى، وصار من حيث يدري -أو لا يدري- خطابًا سياسيًّا أو إعلاميًّا أو فكريًّا، وقد نأت به هذه النعوت والعوارض أحيانًا عن أن يقيم الحجّة، ويُبلّغ الرسالة، واشتغل عنها بالتجاذب والتناوش مع الخطابات السياسية والإعلامية والثقافية المخالفة.. وغالبًا ما تطغى الحظوظ على النفوس في غمرة التناوش والصراع.

ومن مقاصد الدعوة، بذل الوسع في إقامة الحجّة على الناس بسلطة البيان لا بسلطة الإكراه، ذلك لأن البيان هو المرتكز الأول والركن المعتبر الذي ينبني عليه التكليف والمسؤولية، ويترتب عليه الحساب والجزاء، ويعوّل عليه في تحقيق المقاصد العليا لهذا الدين؛ وهو الذي تقوم به الحجة، ويتم به البلاغ، ويوصّل به ما في خطاب الله لعباده من الهدى والبينات؛ والأدلة على ذلك كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(إبراهيم:٤)، ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾(الشعراء:١٩٣-١٩٥)، ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(النحل:٤٤)، ﴿هَذَا

hiramagazine.com

بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١٣٨)، ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾(المائدة:٦٧)، ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(النساء:١٦٥).

وهذا الأصل له شرائط ومقتضيات كثيرة، أقتصر منها على مقتضيين مهمّين وهما:

أ- القدرة على تقصيد الخطاب

ينبغي إنشاء القول على وزن الرسالة التي نريد توصيلها للناس، وأن تصاغ المقاصد والمعاني بعبارات سهلة وكلمات واضحة ودقيقة بقدر الإمكان، بحيث يكون فهمها موحّدًا، وأن تصاغ على شكل نتائج متوقعة. وبهذه الطريقة سيجد الداعي نفسَه يتحرّى القول البليغ، والعبارة الجزلة، والكلمة المناسبة، والأساليب المعتدلة والملائمة في الخطاب. ولا يخفى أن القدرة على التقصيد متوقفة على وضوح الرؤية، ووضوح المعاني وحسن تنسيقها وتنظيمها في ذهن المتكلم.. وإذا كنا نعتب على بعض الدعاة الجسارة على مخاطبة الجمهور بطريقة عشوائية و"لفظية" وغير منظمة؛ فلأنهم في الغالب لا يملكون وضوح الرؤية، ولا يدرون ما الأهداف ذات المدى القريب أو البعيد التي يريدون الوصول إليها.. وقد ترى أن كثيرًا من القضايا التي يتعرضون لها، مبنية على سوانح وخواطر شتيتة تطرأ على أذهانهم من هنا أو هناك، بل ترى أحيانًا أن بعضهم لا يبذل أدنى جهد في تحرير منهجه وبرنامج أهدافه، ولهذا تراه يجتر كثيرًا من أقواله وأقوال غيره بدون بصيرة.

إن وضوح الرؤية والمقاصد يُسعف بالاعتبار بالماضي، واستبصار تحديات الحاضر، واستشراف آفاق المستقبل، ويدفع المرء إلى رسم خرائط واضحة يعرف فيها بدقة: ما الموضوعات التي سوف يتحدث عنها.. وما المبادئ العليا والقواعد الكلية التي ينطلق منها.. وما "الرسالة" الأساسية التي يريد توصيلها.. وما الأمراض الفكرية والسلوكية التي يقصد معالجتها.. وما أنسب السبل لتحقيق ذلك.. ويستبين الأولويات التي ينبغي البدء بها، ويحدد طريقة المعالجة ونحو ذلك مما يعدّ من بدائه الأمور التي لا غنى عنها.

من مقاصد الدعوة، بذل الوسع في إقامة الحجّة على الناس بسلطة البيان لا بسلطة الإكراه، ذلك لأن البيان هو المرتكز الأول والركن المعتبر الذي ينبني عليه التكليف والمسؤولية، ويترتب عليه الحساب والجزاء، ويعوّل عليه في تحقيق المقاصد العليا لهذا الدين.

حراء

ب- تحصيل المعرفة العلمية الضرورية واعتمادها والانطلاق منها في صياغة أي خطاب أو معالجة

وهذا بدوره يقتضي جمعًا واطلاعًا واستقراء للمعلومات والأفكار والدراسات الأكاديمية والبحوث الميدانية، وتوثيقها وتنظيمها لتيسير الاستفادة منها بحسب الموضوع الذي يراد الكلام فيه.

علاوة على ذلك، فإن توضيح المقاصد وتحديد الأهداف، يفيد العمل الدعوي فوائد جمّة، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، الآتي:

• **فائدة تحصيل الرؤية الكلية المنهجية**: فالملاحظ أن كثرة من الأدبيات السائدة في المجال الدعوي، تركز مجهودها على الاشتغال بالفروع والجزئيات والمختلف فيه أكثر من الاشتغال بالأصول المحكمة، وتُعنى بالمشكلات والتفاصيل والحوادث اليومية والطارئة أكثر من الاشتغال بالمفاهيم الكلية المؤسسة للوعي والسلوك، وقد تجد عيونها مصوبة نحو قضايا من التراث أكثر من نوازل العصر ومشكلات البيئة المحيطة بها. إن هذا النمط من الرأي والتصرف، يضعف إمكانية الوعي المنهجي بمختلف القضايا والظواهر والمشكلات النازلة، ويشجّع على اتباع مسالك الارتجال والتخبّط والتقليد، والاعتقاد بأن "اللفظية" أو "التنميق البلاغي" يمكن أن يحلّ مشكلة، أو يشفي داء!

• فائدة وضوح صورة الدعوة في الوعي الجمعي العام: وهذا أمر في غاية الأهمية، لأن الدراسات المتخصصة في علم الاجتماع، تفيد أن الناس لا يتحمّسون لمساندة أي دعوة أو تيار والثقة به، إلا إذا تحقق فيه شرطان: الأول، أن يفهم الناس مقاصد التيار وأهدافه. والثاني، أن يجد الناس لدى التيار حلاً

hiramagazine.com

للمشكلات التي تشغلهم ويعانون منها.

من هنا، ينبغي لمؤسسة الدعوة أن تعرض نفسها على العالم وعلى الناس بطريقة واضحة ومفهومة، وأن تكون عملية التوصيل والتوضيح ميسرة ومحُبّبة، كما قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ﴾(الحجرات:٧)، وبأسلوب جذّاب لا فظاظة فيه ولا غلظة ولا أستاذية ولا استعلاء، وأن تكون القضايا التي تتبناها الدعوة، قضايا مفهومة ومدروسة وذات شأن في نظر الجمهور وميزانه وتقديره.

وهذا من باب قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾(إبراهيم:٤)، وقوله ﷺ: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّب الله ورسوله" (أخرجه البخاري)، وقوله: "أنزلوا الناس منازلهم" (أخرجه أبو داود). فهذا الأمر شديد الموقع، عظيم النفع، غاية في الأهمية، لأنك تجد أعداء الدعوة عادة ما يتربصون بالدعاة من هذه الناحية، ويبذلون قصارى جهدهم لتشويه صورتهم ورمزيتهم في عقل الأمة وتطويقها في زاوية حادة من التهم والأراجيف، مما يتطلب منهجًا واضحًا ودقيقًا في معالجة القضايا وتحليلها، ووضع خارطة شاملة ومتكاملة لإعادة هندسة الفعل الدعوي وأولوياته ومقاصده، بما يوازن بين الخصوصيات الاجتماعية والثقافية المحلية، وبين عالمية الخطاب وكونية الرسالة الخاتمة التي جاءت لهداية الناس على اختلاف أصولهم وبلدانهم وأديانهم وألسنتهم وأعرافهم.. وهذه المهمة تستلزم من خطاب الدعوة، أن يبني رؤيته الثقافية الكونية المتسقة مع كليات الوحي الخاتم، وقيم الفطرة الإنسانية المشتركة. ■

(*) عضو المجلس الأكاديمي للرابطة المحمدية للعلماء / المغرب.

الهوامش

(١) انظر في هذا الصدد كتاب "مشكلة الثقافة"، لمالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان. ودار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة الرابعة، سنة ١٩٨٤.

(٢) مصنف عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٣هـ، ٥/٤٣٤.

(٣) إيقاظ الهمم في شرح متن الحكم، لابن عجيبة، نسخة إلكترونية، ١/٦.

(٤) المدخل، لابن الحاج المالكي، دار الفكر، سنة ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ١/٦.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

سلطانة الماء

يا عطشى من سنين!
جفَّ ماؤكِ،
واستعر فؤادكِ،
واحترق جوفكِ،
فتعالَيْ نبكِ حالَينا،
ونجمع على وسادة الحزن رأسَينا..
فكلانا غريب،
وكلانا عن الأحبَّة بعيد.

* * *

د. ناصر أحمد سنه*

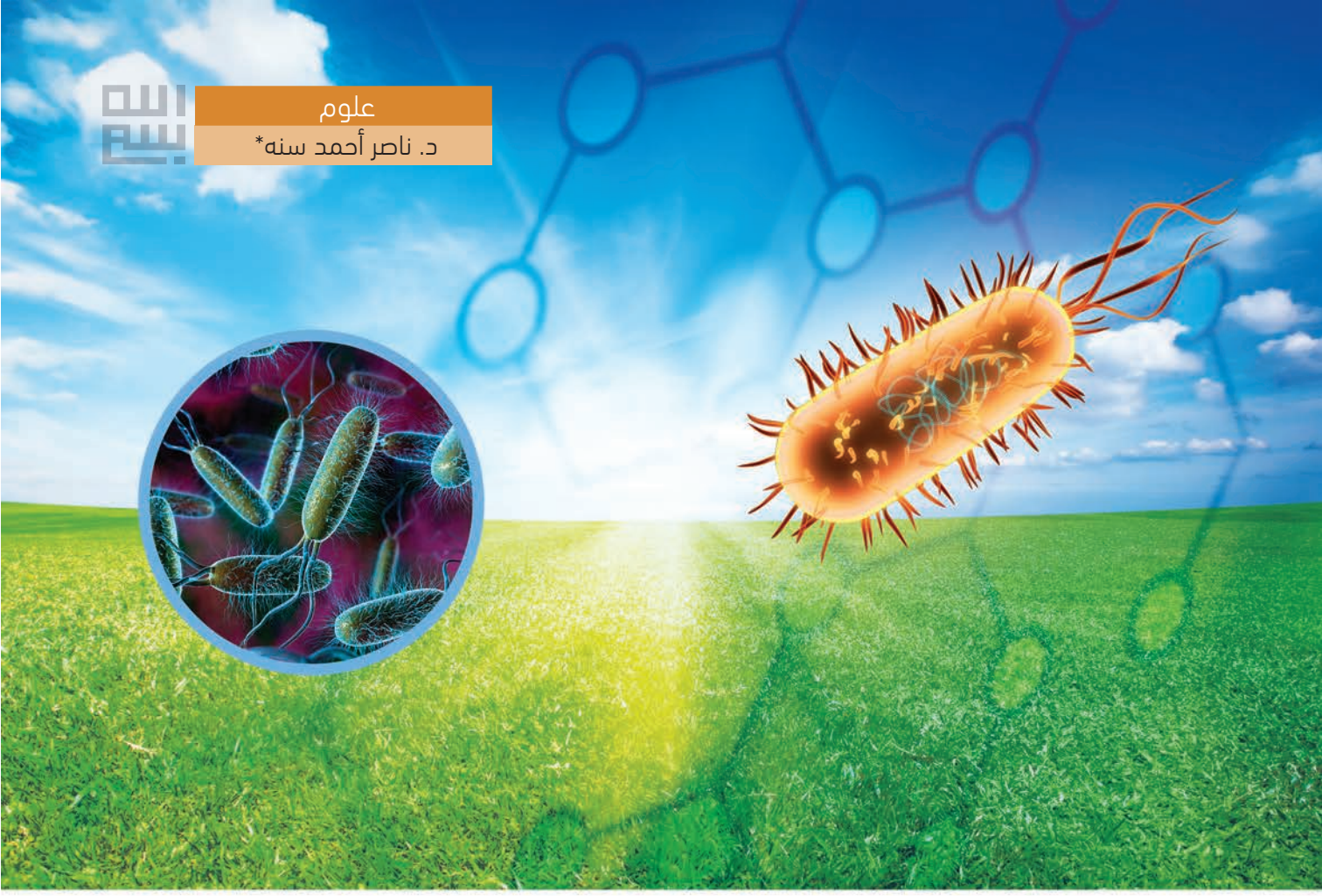

منظفو البيئة

لولاهم لأصبحت الحياة على الأرض غير ممكنة، ولما استمرت في نقاء وتوازن بناء؛ إذ يُنظفون البيئة تنظيفًا طبيعيًّا، كما يُصلحون ما تفسده أيدي بعض البشر.

للبكتيريا والفطريات، دور رئيس في النظافة الطبيعية على الأرض. فإنها تحلل الأجسام والنباتات الميتة على مدار الحقب، كما تقوم أنواع من البكتيريا بمعالجة المخلفات الحيوانية، والمكافحة البيولوجية. ولها إسهام كبير في دورات العناصر الطبيعية كدورة الكربون، والكبريت، والنيتروجين. وعبر قيامها باختزال النترات وإنتاج أكاسيد النيتروجين، تُسهم مجموعة من الكائنات الدقيقة -كالسودوموناس (Pseudomonas)، والعُصَيّات (Bacillus)، وكورني باكتريم (Cornybacterium)- في تحطيم جزئيات الأوزون، وتحويلها إلى أكسجين في طبقة الهواء القريبة من الأرض. وهناك أصناف من البكتيريا تعمل كمنظّفات عضوية صديقة للبيئة، حيث تقوم خلال عملية التمثيل (الآيض البكتيري)، بمعالجة المواد العضوية في القمامة، وتحليل الأوساخ، والغبار، والدم، والبول، والروائح الكريهة، كما تبرع الخنازير، والفئران، والقطط، والكلاب، في تنظيف البيئة من القمامة المتراكمة، وموادها العضوية.

وتعمل الأشعة فوق البنفسجية الصادرة من الشمس، على تطهير الجو، والملابس، والمفروشات، من الميكروبات وقشور الجلد وغيرها. كما تقوم الكائنات النباتية (وحيدة، وعديدة الخلايا، وطحالب، ونباتات راقية) في الغابات وغيرها من المسطحات الخضراء بعملية البناء الضوئي، فتنظف الجو من غاز ثاني أكسيد الكربون. وفي وجود طاقة من الشمس واليخضور (الكلورفيل)، تنتج المواد العضوية الأساسية، كما تقوم بإمداد الكون بالأكسجين اللازم لاستمرارية الحياة.

وكجزء هام من دورة المياه على سطح الأرض، تقوم الأمطار بتنظيف الهواء من الكم الكبير من الملوثات التي تعلق به. وشتان ما بين صفاء ونقاء الهواء قبل وبعد سقوط المطر، مما يجعله صالحًا لتنفس المخلوقات.

منظفو الماء

تم التعرف على نحو ٢٠٠ مجموعة من الأحياء المجهرية (بكتريا، وبعض الفطريات والخمائر)، تتغذى أو تؤكسد المواد الهيدروكربونية الموجودة في البقع النفطية. ويمكن تدجين هذه الأحياء الدقيقة في المختبرات، لاستخدامها (التجاري) في معالجة البقع النفطية. ومن أمثلة البكتيريا: السودوموناس، وكوريني باكتريا، وأرثرو بكتريا. كما تقوم البكتريا بمعالجة المياه العادمة، والتخلص من بعض الملوثات السامة الثقيلة.

ويفرز فطر المايسيلوم، أنزيمات وأحماض تُكسّر الليجنين والسليولوز، الممثلين لأهم كتلتين بنائيتين في الألياف النباتية، والمتماثلة في تركيبها البنائي مع العديد من الملوثات العضوية الأروماتية، مثل بعض المبيدات الحشرية. وتقوم عملية "الترشيح الفطري" باستخدام المايسيليوم، بتنقية النفايات السامة والجراثيم من المياه في التربة. ويتم عبر المعالجات الفطرية، تحديد الأصناف الفطرية لاستهداف ملوثات بعينها. وهناك استفادة من بعض السلالات في تحلل غازات الأعصاب (في إكس) وغاز السارين.

وتعتبر الهائمات النباتية (وحيدة، وعديدة الخلايا)، من منظفات المياه من غاز ثاني أكسيد الكربون في تمثيلها الضوئي. أما الهائمات الحيوانية، فتنظف المياه من السموم الميكروبية، والنباتات والحيوانات النافقة، والمواد العضوية (تحليل البروتينات، والكربوهيدرات، والدهون)، فضلاً عن تحطيم المواد غير العضوية صعبة التحلل، مثل اللجنين، والشيتين، والسليلوز، وقد تتوقف الحياة بالمياه، إذا ماتت هذه الهائمات النباتية والحيوانية. وعندما يقلّ نشاطها لكثرة الملوثات، فإن المياه تكون غير مأمونة، ولا تعود لطبيعتها إلا بتشجيع هذه الهائمات للقيام بدورها كمنظفات بيئة مائية.

وهناك ما لا يقلّ عن خمسين نوعًا من أعشاب المياه العذبة؛ منها الطافية دون جذوع للتثبيت كورد النيل، ياسنت الماء، وعدس، وخس الماء.. أو الطافية ذات جذور في القاع كالبشنين، واللوتس، وأنواع من البوتاموجبتون.. أو المغمورة كنخشوش الحوت.. أو نباتات المستنقعات القصبية كالبوص، وأبو رغبة.. تقوم هذه الأعشاب بامتصاص عناصر ثقيلة تعجز بقية الكائنات عن تنظيفها، وباختزال النترات (يشاركها مجموعة من ميكروبات الماء). كما تعمل أعشاب المياه العذبة ككناسة ومرشح لمركبات غير عضوية وبعض المركبات العضوية، ليكون الماء أكثر أمنًا.

وفي مياه البحار، توجد أنواع من الطحالب، والقشريات، والجوفمعويات، والرخويات، والأسماك، وخراف أو أبقار البحر التي تعمل -جميعها- على تنظيف وتنقية المياه المالحة. وتعتبر الأسماك بأنواعها المتخلفة، من أهم منظفات البيئة المائية. فما إن تطأ بقايا حيوانية أو قمامة أو روث، إلا وتسهم -مع كائنات أخرى- في عملية التنظيف والتطهير. لذا يتراكم تركيز عدد من الملوثات في أجسامها بما يفوق وجودها في الماء بعشرات المرات. وهناك أسماك "رمية التغذية"، فإنها تفضل التغذية على مواد متحللة، وقواقع، ويرقات بعوض، وحشرات، وقشريات نافقة، وحشائش مائية. أما الأسماك عديمة الفكوك (الكناسات) كسمك الجلكا، والجريث، فتعمل في هيئة النظافة العامة، حيث تمارس عملية "قشط، وكنْس، وشفط" الأسماك، والعوالق

hiramagazine.com

الميتة، والديدان، والقشريات النافقة.. فتزيل المخلفات العضوية، ومن ثم تعمل على نظافة البيئة المائية، وإزالة مسببات الأمرض التي تتواجد فيها.

الحشرات والزواحف

تقوم الحشرات بدور هام في تنظيف البيئة عبر تغذيتها على الفضلات، وبقايا النباتات والحيوانات النافقة. ويعمل الذباب المنزلي، وذباب الإسطبلات، وذباب اللحم، والذباب الأزرق والأحمر، والخنافس، والعنكبوت الأحمر، والكائنات الحية الدقيقة على غربلة البيئة من القمامة، وروث الحيوانات والدواجن، والمواد العضوية الأخرى. وهناك العديد من الحشرات -مثل الدَّعْسوقة وخنفساء أبي العيد- تفترس الحشرات الضارة، بالمحاصيل الزراعية. وهناك حشرات تتطفّل على أخرى ضارة، فتضع بعض الزّنابير بيضها في اليساريع التي تدمر نبات الطماطم، وحينما يفقس البيض، تتغذى الصغار بأجسام اليساريع وتلتهمها.

تفضل الثعابين -التي تضم نحو ٢٣٠٠ نوعًا- التغذية على القوارض، والفئران، والحمام، والعصافير، فتنظف البيئة من أعدادها المتزايدة الكبيرة. أما الكبير من الثعابين، فقادر على التهام خنزير بري كبير بأكمله. وتُسهم السحالي -تشمل نحو ٢٥٠٠ نوعًا- والضفادع، وعلجوم القصب العملاق، على تطهير البيئة من الحشرات والحيوانات الصغيرة. كما تعتبر التماسيح -يوجد منها نحو ٢٠ نوعًا- من البرمائيات الشرهة. ولقد قامت مع الأسماك المتوحشة الكبيرة، والهائمات الحيوانية والنباتية، بتنظيف بحيرة "فكتوريا"، ومياه نهر النيل، من نحو خمسين ألف جثة بشرية ألقيت فيها.

ومن الطيور نشاهد الخفاش، والحدأة، والبوم، والرخمة المصرية، وصقور الفئران، والنسر الفحام الكبير، وصقر شاهين، والبلاشون، وطيور أبو منجل، ونقارات الخشب، وأبو قردان، وأبو فصداة، والهدهد، والكروان، والوروار، وعصفور النيل، وفرس النبي، وطيور مهاجرة.. فتتشارك جميعها في تنظيف البيئة من الطيور المريضة والضعيفة والنافقة، وكذلك من الفئران، والضفادع، والثعابين، والحشرات، والديدان، والآفات الزراعية.

الضواري من الأسود والفهود

لم تسبب الحيوانات الضارية (الأسود، والنمور، والفهود، والثعالب، والذئاب، والضباع، وابن آوى، وابن عرس) انقراضًا لأي من الأحياء التي تفترسها، إذ إنها لا تفترس إلا عند الشعور بالجوع وبقدر محسوب. كما لا تقتات -غالبًا- على الضعيف والمريض والنافق والصغير من الفرائس. ولكن في أوقات الجفاف، تضطر الأسود البرية (ليست من آكلات الجيف) لتناول جثث الحيوانات النافقة، وما تبقى من غذاء الضواري الأخرى كالنمور والفهود. مما يجعلها تسهم بشكل إضافي في تنظيف البيئة، إلى جانب الضباع منافسها الرئيس. وتعتبر الأخيرة من أهم الضواري -بجانب سباع الطيور كالنسور، والصقور، والبوم- التي تأكل بقايا الحيوانات النافقة، والمخلفات الأخرى، فتترك البيئة متنوعة ومتوازنة ونظيفة منها ومن القوارض والفئران والأرانب البرية والطيور المريضة. ويمكن للضباع ابتلاع ١٤ كيلوجرامًا من اللحم دفعة واحدة. وعندما تهاجم الضباع فريسة سهلة -كالحمار الوحشي- فإنها تلتهمه بشراهة خلال ربع ساعة فقط. وإن تبقى شيء من الفريسة، فتدفنها بمكان آمن ثم تعود إليها عندما تجوع. ولعلها بذلك تُعد من أهم منظفات البيئة الطبيعية. ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.

hiramagazine.com

د. ليلى محمد السبيعي*

وارثو الأرض

يا أيها الإنسان المترنح بين رجات عالمك الدنيوي عالم المنصب والمظاهر، أما آن لك أن تبحث عن أمارات الفجر حواليك، قاصدًا عالمك الذي سترتاح إليه وستلقى فيه حقيقتك الخالدة؟ أم أنك تتأبى على نفسك أن تنعم بالحرية والانعتاق، فلا أنت تحظى بالعيش ولا روحك تتملك الغد السعيد الذي لطالما تاقت وتشوقت إليه دواخلك؟ يكفيك ضنكًا أيها المسكين وفقر روح يكفيك.. اسمع لقول ربك عز اسمه: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً منْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(البقرة:٢٦٨). لا تخاصم أحلامك، ولا تظلم معك روحك العلوية المشتتة بين مخالفة الطبع وهجران الفطرة الإلهية، والحياد عن

غمام وزخات الإلهام والمحبة، وبين الانحناء في ذل وهوان فظيعين لنير عبودية اللحظة والعزوف عن الحق، عوض تلقي نفحات البقاء والخلد، كي تحفظ شباب روحك مهما هرمت من حولك دنياك.

أيها الإنسان النازف الروح، المتعثر بتلابيب ذنوبه وأوهامه، المنكسر الأحلام.. أما آن لك أن تلملم جرة روحك المشروخة، وترتد عن زمن الهرج والفتن، وتلوي في استحياء وخضوع إلى حقيقتك فتقيم صرح الروح من جديد، ولتستعيد روحك اللدنية والسماوية عذوبتها ونضارتها الأزلية، ولتقترب من خالقك ومولاك مرة أخرى؟ وانظر لقول ربك جل شأنه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(البقرة:١٨٦)، فتكسب معركة الإيمان والعزم كما كسبها أولو العزم قبلك، فتبني للنور والضياء والعرفان قلعة أمان، قلعة تحتضن في أبراجها حيارى العالم مكفكفًا بيدك الحانية دمعات الحزن، وبمنديل الصفاء والطهر تمسح عن وجه البشرية قذاء الفلسفات العاجزة.

وليهتف حينئذ باسمك الحاضر والمستقبل: فالأرض مهما طالت واستطالت سِنُون العار والخيانة عليها، لا بد أن يرثها عباد الله الصالحون. إنها سنته تعالى في أرضه للعالمين.. وتأمل قول ذي الجمال والجلال: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾(فاطر:٤٣). لقد كتب عليك أيها الإنسان الصالح لتنال شرف الخيرية والخلود، أن تحمل لواء الرحمة الربانية للناس وسط دياجير هذا الليل المظلم، لتنتزع بلطف من القلوب الجريحة المنكسرة أمارات البؤس والغربة والوحشة التي زرعتها أيادي الشقاء والانحطاط، وتبتغي لأرواح المنكسرين سلالم تصلهم بأسباب السماء، فقد سئمت أرواحهم لبثها عند مشارف الأرض، واسمع لقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾(إبراهيم:١). ■

(*) كاتبة وأديبة / المغرب.

حراء
مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

بشائر ونُذُر

دومًا من الأعالي؛
كم ربيع هبط،
زَخَّارًا بالرَّوح والرَّيحان،
والعطر والألوان..
وكم نسيم سرى إلى القلوب،
سريان ماء السلسبيل على الأرض القحلاء..
والمكان نفسه كم ماج وعجَّ،
وعصف واضطرب،
وأشاع الخوف، ونشر الرعب.

* * *

عادل سعيد القدسي*

النور الخالد.. إشارات وبشارات

محمد فتح الله كولن يرسم بألوان الحب، بأشعة النور، لوحة "النور الخالد" في حب "محمد.. مفخرة الإنسانية". سحرني العنوان وسحبني إليه.. والكتاب -يقولون - يُقرأ من عنوانه.

"النور الخالد" اختزال عميق لمئات وآلاف الجمل التي يمكن أن تقال، قالها هذا العنوان، وفقط بكلمتين اثنتين ليس لهما ثالث.

وعن "محمد.. مفخرة الإنسانية" يمتد النور، ليخترق الزمان ويخترق المكان، ويعلو ويعلو مرتفعًا بالإنسان إلى فضاء الأكوان.. ولو لم يكن "محمدًا" لما كنّا نحن نفتخر به وننتسب، وتفخر به كل الإنسانية. صفحات خالدات من سيرةٍ رائدةٍ، ومن مسيرةٍ متجددةٍ، لا يزال نبعها ثرًّا غزيرًا وكوثرًا سلسبيلاً.. يشرب منه العطشى، ويتوارد عليه الدلاءُ والمنقطعون.

منذ مطلع النورالأول وقافلة النور تمضي بركبها، تضع بصمتها، وتحفرُ عنوانها في ذاكرة الراحلين والآتين.. منذ مطلع النور الأول.. ومواكب المحبين تترى موكبًا إثر موكب، كلهم يريدُ أن يغسل قلبه وروحه بنور النبوة ومصباح الرسالة.. وبالتماس القرب من الحبيب. كلهم يطلب القرب ويرجوه، وليس كلهم من يتحقق طلبه ويُلبى رجاؤه؛ ﴿وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت:٣٥).

وهذا الطفل الجميل الضاحك -كاسمه- الحزين الباكي بفعله وسلوكه وسائر حياته.. زاحم الكبار "على الحوض" مذ لامست جبهته الطاهرة التراب وهو ما يزال زهرةً لم تتفتح بعدُ في الخامسة من عمره، ولم ينتشر شذاها في العالمين بعدُ، ثم زاحمهم بفتوّته وشبابه، ثم في شيخوخته وشيبته زاحمهم، يسعى للوصول، يحاول التماس القرب من مصدر النور في منبعه الأول.

"ولكن ما بالي -يتحدث محمد فتح الله كولن- أشيرُ إليكم، أو أعنيكم؟ ما بالي أنا؟ هل استطعت أن أشرح جوانب عظمته كما يجب، وأكشف معالم شخصيته كما ينبغي؟

أنا الذي أضعُ جبهتي للصلاة منذ الخامسة من عمري، وأنا الذي أدَّعي أنني وضعت الطوق على عنقي لكي أكون قطميرًا له، هل استطعت أن أشعركم بما يجيش في صدري من عظمة النبي ﷺ كما يليقُ بجوانب هذه العظمة؟ إنني أسائل نفسي، وأسائل جميع الذين يتصدّون للتبليغ والدعوة، هل استطعنا أن نشرح لإنسان هذا القرن حبه؛ حب سيد السادات، حبًّا تجيش به القلوب؟ هل استطعنا أن نبهر القلوب والأرواح بهذه العظمة، عظمته ﷺ؟".

هو محمد فتح الله كولن؛ الساعي للوصول، الطالب للقرب، لا يهمه شيء حتى لو صار "قطميرًا" -وحاشاه فقدره عالٍ ومقامه رفيع- والقطميرُ هو سم كلب أصحاب الكهف في القصة القرآنية الرائعة التي وردت في ذات سورة الكهف.

يضيف محمد فتح الله كولن في تقديم أوراق اعتماده، بين يدي سيد السادات، صاحب العظمة، العبد الرسول لا الملك الرسول، بقوله: "كلا! فلو عرفته البشرية حق المعرفة، وفهمته حق الفهم، لهامت به حبًّا

ووَجْدًا.. ولو تغشت الأرواح ذكراه الجميلة، لثارت أشواقها وفاضت عيونها بالدموع، ولاقشعرّ جلدها وهي تخطو إلى عالمه؛ عالم النبوة الطاهرة، ولألقت نفسها للريح كي تشعل جذوة قلوبها المتقدة بحبه، بعدما صارت رمادًا، فتذروها الريح نحوه ﷺ".

إن كتاب "النور الخالد" بصفحاته الـ"٧٥٧"، وبأقسامه الـ"٥"، ليس كتابًا يقرأ. إنه روح حيّة في الأرواح تسري، ليس كتاب "سيرة" مما يخطه المؤرخون والعلماء في سيرة المصطفى تتبعًا لمسارات الأحداث، ومنعطفات التواريخ، رغم أنه في السيرة يمضي.. ويحكي.. لكنه من ذوب الفؤاد يرسم خطوطه، ومن مجرى الدموع يحفر مساربه.. لم يُكتب بالقلم هذا الكتاب.. أحسبه كذلك.

الكتابة، بالدموع هنا، تبدو واضحة جلية في كل صفحة، بل وفي كل جملة وكلمة فيه. وقد لمستُ هذا الأثر، متأكدًا منه بشخصي الضعيف. إذ إنني قرأته بدموعي المنسكبة لا ببصري، ربي يعلم.

فإن ما يكتب بالدموع لا يُقرأ إلا بالدموع، وما يخرج من القلوب حتمًا ولزمًا يصل القلوب.

إنه مما لا شك فيه ولا ريب، أن التصدي لكتابة السيرة النبوية تكليف شاق ومرهق.. لا أعني الكتابة التقليدية الجافة التي تعتمد النقولات والمصادر، وتبالغ في حشو الكلام وتكثير الصفحات.. إن التشبع بروح السيرة وصاحب السيرة ومنهج السيرة، تجعلها تنتقل من موقع النقل إلى لحظة الفعل.. من الغياب واستحضار التاريخ البعيد، إلى الحضور الروحي والتواجد الوجداني الآني اللحظي.. ومن الكتابة كطرف محايد إلى المشاركة والفاعلية والتفاعل.

إن السيرة النبوية ليست أوراق تدبج بالكلام الفارغ أو الملآن ويتم فيها حشر النصوص وتكرارها، واستحضار المنعطات التاريخية، ولو كان كذلك لاكتفينا بما وضعه الأوائل في التاريخ والسيرة كابن كثير في "البداية والنهاية"، وكالطبري في "تاريخ الأمم والملوك"، وابن الأثير في "الكامل في التاريخ"، وابن هشام في "السيرة النبوية".

السيرة النبوية مسيرة تتجدد، وتاريخ يحمل صفة

إن كتاب "النور الخالد"، ينقل روح السيرة إلى أرواحنا، أو هو ينقل أرواحنا إلى روح السيرة، فنجدنا نلتحم معًا في ملحمة هذه السيرة. فإن كل صفحة من النور الخالد هي برنامج عمل، ومشروع تغيير وبناء، ومخطط تنفيذ وتطبيق لواقعنا الحالي لزمننا المعاصر.

حراء

الحضور الأزلي عبر الأزمان الثلاثة؛ الماضي الحاضر والمستقبل، تاريخ الأبعاد الثلاثة. السيرة النبوية كتاب مفتوح ولا ينغلقُ أبدًا ويستحيل، بحره عميق، وسره دقيق، وعطاءاته متدفقة. ليس فيه سطر أخير أو نقطة نهاية، وتلك إحدى معجزات هذه السيرة المباركة.

فسيد السادات ومفخرة الإنسانية هو بشرًا رسولاً، هو إنسان لكنه نبي، هو أرضي لكنه سماوي، وهو العظيم المتواضع.

إن كتاب "النور الخالد" في ذات السياق يأتي ينقل روح السيرة إلى أرواحنا، أو هو ينقل أرواحنا إلى روح السيرة، فنجدنا نلتحم معًا في ملحمة هذه السيرة.

إن محمد فتح الله كولن يعيش بروحه وكيانه، بأحاسيسه وبمشاعره، مواقف السيرة ومواقعها.. أُنظره وهو يصور الحضور في حضرة النبي ﷺ قريبًا من قبره الشريف وكأنه يحدثه، حديث الشهادة لا الغيب: أهلاً بك وسهلاً ومرحبًا لدرجة تشعرني -يقول كولن- إنني سأقابله بعد خطوة واحدة.

إن أهم ملمح نلمحه ونحن نقرأ هذا السفر الرائع، أنه يندمج ويندغم روح كاتبه، بروح السيرة ذاتها، لا ينفصلان.

تجاوز به كاتبه محمد فتح الله كولن الطريقة الاعتيادية التي اعتادها المؤرخون كي ينفذ إلى روح التاريخ، ويصطفي منه مشاهد وشهادات، ثم ينفخ فيه من روحه، فتصير روحًا -بإذن الله- عصرية جديدة، تقرأ المشهد الحالي بعيون الماضي، وتعالج الزمن القديم بروح الجديد والمتجدد.

"إننا مفتونون -الكلام لمحمد فتح الله كولن- بالمستقبل الذي سيولدُ من رحم الغيب، لكننا لن نجد

hiramagazine.com

سوى نوره ﷺ، فإذا انطفأ هذا النور فستصبح الحياة ظلمة أبدية".

وأزعم أن كل صفحة من النور الخالد هي برنامج عمل، ومشروع تغيير وبناء، ومخطط تنفيذ وتطبيق لواقعنا الحالي لزمننا المعاصر.

وصاحب الكتاب هو صانع حدث، هو قائد ركب، وهو رائد مسيرة قبل أن يكون مؤلف سيرة انقطع لها، وذات المادة المضمومة بين دفتي الكتاب هي في الأساس سلسلة من الخطب والمحاضرات، وتجربته التي صنعها على أرض الواقع، وبعثها تجارب حيةً غطت مساحات واسعة من كرتنا الأرضية وبقاراتها الخمس، لتعطي التأكيد أن السيرة النبوية ليست تلاوة موالد وإحراق بخور، وليست تهويمات أو ترنيمات، وتطويح بالرؤوس، ومن ثم غيبوبةٌ عن الحياة.

إن النور الخالد أعتبره كتاب فتح؛ حمل بشارات وإشارات ودلائل وعلامات على أن الزمن الآتي هو زمن الفتح المبين؛ زمن "محمد.. مفخرة الإنسانية".. إنه حُداء المستقبل الذي يؤكد -رغم كل ما ننظره ونراه ونحياه- من ظروف وملابسات غاية في السوداوية والقتامة، يؤكد أن الإسلام قادم قادم قادم.

وهنا تحديدًا، يستعيد كولن مما تداعى إلى خاطره مقولة شاهد القرن العشرين، الإمام المجدد بديع الزمان النورسي: "إنّ أوروبا حاملةٌ بالإسلام فستلدُ يومًا ما، وإنّ الدولة العثمانية حاملةٌ بأوروبا فستلدُ يومًا ما".

وأنه ليس عالمنا الإسلامي المثخن بالآلام والجراح، هو من سيتعافى ويقف على قدميه، لكن العالم الآخر من الكرة الأرضية، العالم الأوروبي، حاملٌ بالإسلام وسيلدُ قريبًا.

إن قيادة البشرية من أكبر فلاسفة العصر، وأعظم المفكرين، وأشهر العباقرة، وأذكى رجال العلم، خاطبوا سيد السادات -معجزة الإنسانية- بقولهم: "أنت الإنسان الذي نفخر بانتسابنا إليه.. إنه فخر للبشرية جمعاء".

ولقد تواترت النقولات من هؤلاء على الطرف الآخر، تؤكد ذات التوقع، ولعل المقولة الأشهر للكاتب الإيرلندي الساخر "جورج برناردشو" تمنحنا مزيدًا من الثقة والاطمئنان وأسباب الكفاح والعمل حين قال: "ما أحوج عصرنا إلى شخص مثل محمد ﷺ يحل له مشاكله ريثما يشرب فنجانًا من القهوة".

إننا نكاد اليوم نحيا غار حراء في نسخته المعاصرة، نتحفز لإعلان ميلاد جديد لأمة جديدة، بأشواق جديدة وأحلام رائعة.

مسك الختام

يا براعم الأمل؛ ستقومون أنتم بإهداء حقائق الدين، وإقامتها في الدنيا مرة أخرى. فأنتم بارقةُ ضوء من منبع نورٍ عظيم أضاء أطراف العالم الغارقِ في الظلام، وأنشأ شجرة إيمان وارفة الظلال كشجرة طوبى ظللت بأوراقها وأزهارها كل الأرجاء.

كانت كل كلمة لأمتنا في المباحثات الدولية في تلك العهود الزاهرة، بمثابة أمر. وستقومون أنتم -بإذن الله- باستعادة العهود الزاهرة، والتخلصِ سريعًا من هذا العهد المظلم الذي نعيشه. فهذا هو ما يأمله الجميع منكم، يأمله من يعيش فوق التراب ومن هو مدفونٌ تحته.. بل هذا ما يأمله منكم رسول الله ﷺ وهو يتجول بروحانيته بينكم، ويربتُ على أكتافكم، ويبتسم لكم وإن كنتم لا ترونه أو تحسّون به.

أنتم تستطيعون نشر الأمن والطمأنينة فيما حولكم إن بقيتم أمناء ولم تنحرفوا عن الاستقامة. أجل، إن استطعتم تحقيق هذا، انفتح لكم قلبُ الإنسانية جمعاء على مصراعيه، وستتربعون في هذا القلب كما تربع أجدادكم من قبل.. ولكن لا تنسوا أبدًا أن شرط الوصول إلى هذه النتيجة، وإلى هذه الذروة مرتبط بكونكم أمناء للأمانة الملقاة على عاتقكم.

فإن كنا نريد أن نكون أمة لها وزنها وكلمتها في الشؤون الدولية المهمة، وتلعب دورًا بارزًا في تأسيس التوازن الدولي حيث أننا مضطرون أن نكون كذلك، فيجب أن نكون ممثلين للحق وللعدالة وللاستقامة وللأمن. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾، ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾. ■

(*) كاتب وصحفي / اليمن.

hiramagazine.com

د. مصطفى بوزغيبة*

جمالية العبادة
الشوق إلى الله تعالى

تختزن العبادة في الإسلام معاني عظيمة، وتكتنز في أعماقها دررًا جليلة.. فهي كمياء السعادة الحقيقية التي تمدّ قلوب السالكين بمعاني القرب والأنس بالله ﷻ، وتشحن هممهم بالتعلق به وملازمة أعتابه، وتُلهب نار الحب والشوق إلى لقائه.. إنه مقام القرب والمشاهدة الذي قال عنه النبي ﷺ: "أنْ تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (رواه البخاري). فمن تحقق به وذاق برد حلاوته فهو الفائز بالنعيم الأبدي، والحياة الطيبة.. فحياة المشتاقين إلى الله تعالى، كلها لذة وجمال؛ فهم بذكر حبيبهم يتلذذون، وإلى مشاهدة جماله وجلاله يتنعّمون.. قد أحرق الشوق أضلعهم، وألهب أفئدتهم، فلا يقرّ لهم قرار، ولا يهنأ لهم بال؛ حتى يتملوا بالنظر في وجه حبيبهم وقرة عينهم.. لذلك يتمنون لو يسرع بهم أجلهم للقاء بهجة روحهم وإثمد عيونهم.. قال أبو الدرداء ﷺ: أحب الموت اشتياقًا إلى ربي.. وكان عبد الله بن أبي زكريا يقول: لو خيّرت بين أن أعمّر مئة سنة من ذي قبل في طاعة الله، أو أن أُقبض في يومي هذا،

المعاني الروحية التي ينتعش لها القلب وتطرب لها الروح، تغرينا بخوض غمار التجربة الروحية، والغوص في أسرار العبادة، وتذوق جماليتها، والعيش في أحضانها، لعلنا نصيب من نفحاتها ما يجعلنا نسعد ونحيى حياة أهل النعيم في الحال والمآل.

حراء

أو في ساعتي هذه، لاخترت أن أُقبض في يومي هذا، أو في ساعتي هذه؛ شوقًا إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الصالحين من عباده.. قال أحمد بن حامد الأسود لعبد الله بن المبارك: رأيت في المنام أنك تموت إلى سنة، فلو استعددت للخروج، فقال له عبد الله بن المبارك: لقد أجلتنا إلى أمد بعيد، أعيش أنا إلى سنة؟ لقد كان لي أُنس بهذا البيت الذي سمعته من هذا الثقفي (يعني أبا علي):

يا من شكا شوقه من طول فرقته
اصبر لعلك تلقى من تحب غدًا

ففي "المواعظ" لابن الجوزي، أن بعض العابدات كانت تقول: والله لقد سئمت الحياة، حتى لو وجدت الموت يباع، لاشتريته شوقًا إلى الله وحبًا للقائه، فقيل لها: على ثقة أنت من عملك؟ قالت: لا والله.. لحبّي إيّاه وحسن ظني به، أَفَتراه يعذبني وأنا أحبه:

يا ناظر العين قل هل ناظرت عيني
إليك يومًا وهل تدنو من البين
الله يعلم أنّي بعد فرقتكم
كطائر سلبوه من الجناحين
ولو قدِرت ركبت الريح نحوكم
فإن بعدي عنكم قد حنا حين

فلولا أنهم يتعللون باللقاء، لقطعت أكبادهم شوقًا، ولاشتعلت قلوبهم نارًا من فرط حبهم وهيامهم بحبيبهم.

قال أحدهم: لولا التعلل بالرجاء لقطعت
نفس المحب صبابة وتشوقًا
ولقد يكاد يذوب منه قلبه
مما يقاسي حسرة وتحرقًا
حتى إذا روْح الرجاء أصابه
سكن الحريق إذا تعلَّل باللقا

هذا الشوق الحار والحب الوقاد، الذي فاضت به قلوب السالكين وسالت بها أقلامهم، يبعث في النفوس همة عالية، وشعور جميل يسري في الروح، ويروي القلوب المتعطشة لزلال الحضرة العلية.. هذه التجربة السلوكية القلبية تغرينا حقًّا بأن نخوض غمارها ونسلك طريقها.

فيا لها من معاني ورقائق، لا يستشعرها إلا من هبت نسمات القرب عليه بعد طول الانتظار، ففاض قلبه وأرواحه حبًّا وعشقًا، وبُشر بنيل الوطر ولسان حاله يقول: من ذا يبشرني بيوم اللقاء

أعطيه من فرط السرور ردائي
لولم أكن عبدًا لكنت
وهبته روحي وتلك هدية الفقراء

ويقول أحد الهائمين:

نسيم القرب هب على الندامى
فأسكرهم وما شربوا المدامة
ومالت منهم الأعطاف ميلاً
لأن قلوبهم ملئت غرامًا
وناداهم عبادي لا تنامـوا
ينال الوصل من هجر المناما
وما مقصودهم جنات عدن
ولا الحور الحسان ولا الخياما
سوى نظر الجليل فذًا مناهم
فيا بشرى لهم قوم كرامًا

هذا الشوق الكبير إلى الحبيب لا يمكن وصفه؛ فهي عبرات لا يفهمها إلا المشتاق، وأحاديث وترانيم لا تروق إلا للعشاق، بل هي أذواق يعيشها المحب، وتسري في قلبه وروحه ووجدانه وجسمه، فيستسهل كل صعب، ويسترخص كل غال ونفيس، ويبذل في سبيل حبه كل مجهود.. ويستعذب الموت، ويستطيب الفوت لما عاين جمال حبيبه، ولم ير طعم الراحة إلا في جنبات أعتابه، ولا يذوق الطمأنينة إلا في رحاب حبيبه.

لولا مدامعُ عشاق ولوعتهم
لبان في الناس عز الماء والنار

hiramagazine.com

فكل نار فمن أنفاسهم قدحت
وكل ماء فمن دمع لهم جار

فهذا حال المشتاقين وحال المحبين؛ لا يفترون لحظة عن ذكر حبيبهم وقرة عينهم وبهجة نفوسهم، لا يعزب عنهم محبوبهم طرفة عين.. فإذا تكلموا نطقوا به، وإذا سكتوا أمعنوه بقلوبهم وفكرهم.. قال سلطان العاشقين ابن الفارض:

فإن حدثوا عنها فكُلي مسامع
وكلي إن حدثهم ألسُن تتلو

وقال أحدهم:

ما عنك يشغلني مال ولا ولد
نسيت باسمك ذكر المال والولد
فلو سفكت دمي في الترب
لانكتبت به حروفك لم تنقص ولم تزد

وقد ذكر ابن الجوزي أن أحد الهائمين -وهو أبو العباس أحمد الرفاعي- مات بسبب أبيات أُنشدت بين يديه، وهي أبيات كلها شوق حارق، ومعنى فياض نابع من قلب متعلق بالملأ الأعلى.. فتواجد الشيخ أحمد الرفاعي عند سماعها تواجدًا كان سبب مرضه الذي مات فيه، وكان المنشد لها الشيخ عبد الغني بن نقطة حين زاره، وهي:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم
أنوح كما ناح الحمام المُطوق
وفوقي سحاب يُمطر الهم والأسى
وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا أُمَّ عمرو كيف بات أسيرها
تُفَكُّ الأسارى دونه وهو مُوثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة
ولا هو مأسور يُفك فيُطلقُ

فهذه المعاني الروحية التي ينتعش لها القلب وتطرب لها الروح، تغرينا بخوض غمار التجربة الروحية، والغوص في أسرار العبادة، وتذوق جماليتها، والعيش في أحضانها.. لعلنا نصيب من نفحاتها ما يجعلنا نسعد ونحيا حياة أهل النعيم في الحال والمآل. ■

(*) كاتب وباحث / المغرب.

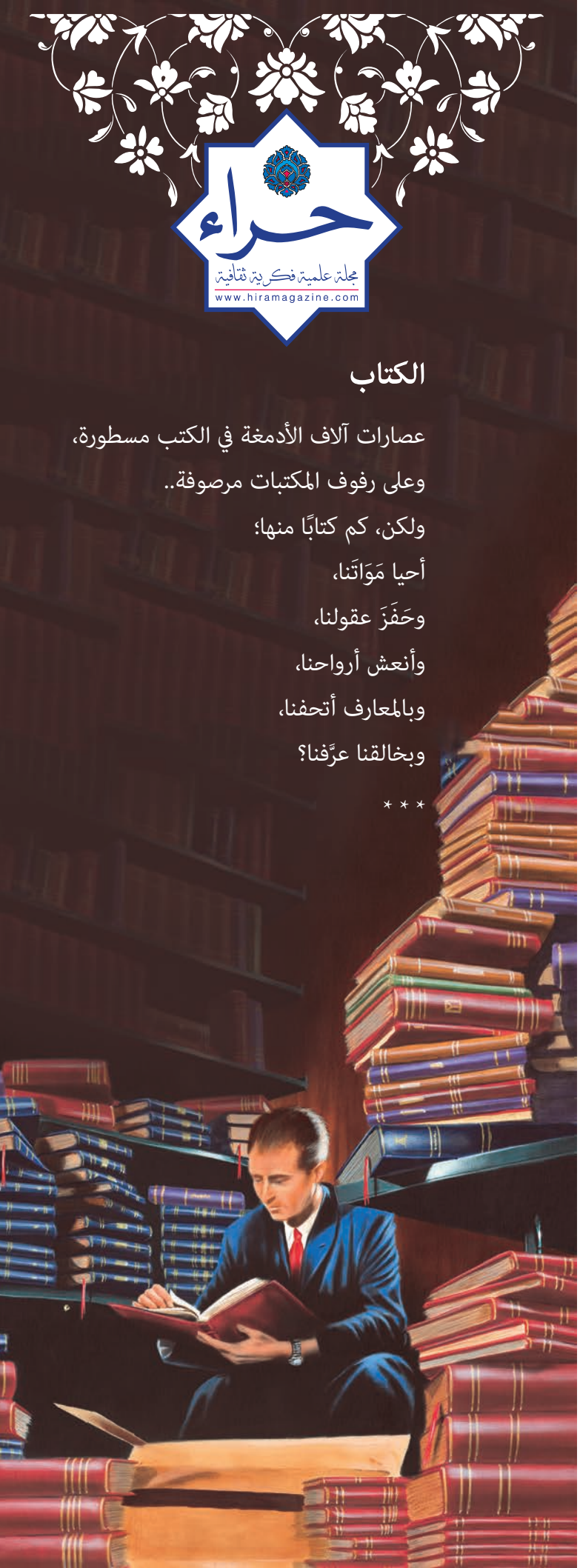

الكتاب

عصارات آلاف الأدمغة في الكتب مسطورة،
وعلى رفوف المكتبات مرصوفة..
ولكن، كم كتابًا منها؛
أحيا مَوَاتَنا،
وحَفَزَ عقولنا،
وأنعش أرواحنا،
وبالمعارف أتحفنا،
وبخالقنا عرَّفنا؟

* * *

د. محمد السقا عيد*

أقوى الخيوط وأوهن البيوت

كيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت على الإطلاق، وهو منسوج من أقوى الخيوط على الإطلاق وأكثرها مرونة؟ وكيف يجتمع في منشأة واحدة الحد الأدنى من الوهن، والحد الأقصى من القوة والمرونة؟

يقول الدكتور محمد الفار أستاذ ورئيس شعبة الكيمياء الحيوية بعلوم المنصورة، في مقال له نشر في جريدة الأهرام: والعجيب أن من هذه الخيوط (القوية) تصنع بيوت العنكبوت (الضعيفة) الواهية والواهنة. وإلى هذا يشير المولى ﷻ في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. باختصار: لو كان القرآن الكريم من تأليف النبي محمد

ﷺ، لما وجد حرجًا أن يقول: "إن أوهن الخيوط لخيط العنكبوت"، فمن كان سيكذبه بحسب معارف ذلك الزمان؟ وسبحان منزل القرآن.

خيط العنكبوت

إن خيوط بيت العنكبوت حريرية دقيقة جدًا، يبلغ سمك الواحدة منها في المتوسط، واحدًا من المليون من البوصة المربعة، أو جزءًا من أربعة آلاف جزء من سمك الشعرة العادية في رأس الإنسان. وهي على الرغم من دقتها الشديدة، فهي أقوى مادة بيولوجية عرفها الإنسان حتى الآن، لدرجة أن الجيش الأمريكي يصنع منها ملابس مضادة للانفجارات. وتعتبر الخصلات الحريرية التي تكون نسيج العنكبوت، أقوى من الفولاذ، ولا يفوقها قوة سوى الكوارتز المصهور، ويتمدد الخيط الرفيع منه إلى خمسة أضعاف طوله قبل أن ينقطع، ولذلك أطلق العلماء عليه اسم "الفولاذ الحيوي"، أو "الفولاذ البيولوجي"، أو "البيوصلب"؛ وهو أقوى من الفولاذ المعدني العادي بعشرين مرة، ومن الألمنيوم ٢٩ مرة وتبلغ قوة احتماله ٣٠٠,٠٠٠ رطلاً للبوصة المربعة. فإذا قدر جدلاً وجود حبل سميك بحجم إصبع الإبهام من خيوط العنكبوت، فيمكنه حمل طائرة "جامبو" بكل سهولة.

لقد صنع العلماء خيطًا من الحديد الصلب في مثل سمك خيط بيت العنكبوت، وجرّبوه في شؤون الهندسة بما يسمى "قوة تحمل الشد"؛ فوجدوا أنه ليس هناك مقارنة بين قوة خيط بيت العنكبوت وخيط الحديد الصلب "بنفس السماكة"، بل على العكس، وجدوا أن خيط بيت العنكبوت يتحمل قوة الشد أضعاف المرات ما يتحمله خيط الحديد الصلب، بمعنى أن خيط الحديد الصلب انقطع في مراحل مبكرة قبل خيط العنكبوت في هذا الاختبار العلمي. وقد أثبت العلم الحديث أن بيت العنكبوت أقوى من بيت الحديد الصلب. فقد نجحت شركة كندية في استنساخ الطبيعة من خلال إنتاج خيوط العنكبوت الحريرية، وهي مادة تبلغ قوتها ومتانتها خمسة أضعاف متانة وقوة الفولاذ إذا ما قورنت وزنًا بوزن.

ويقول رئيس شركة نكسيا للتكنولوجيا الحيوية

الخيط الحريري الذي تحيك به العنكبوت بتفنن شبكتها، هو مجموعة خيوط ملتفة على بعضها.. فسمك شعرة الإنسان يزيد عن سمك خيط العنكبوت بـ٤٠٠ مرة.

الدكتور "جفري تيرنر" في تصريح لـ"بي بي سي أون لاين: إن المادة المنتجة لها ملمس الحرير الذي تنتجه دودة القز، ولها مرونة وقوة مذهلة.

يشار إلى أن العناكب تنتج خيوطها الحريرية -بشكل طبيعي- من بروتين ممزوج بالماء، تخرجها من فتحة صغيرة جدًا من أبدانها لتشرع في نسجها كما هو حال الخيط العادي. وقد استنبت علماء الشركة الكندية موروثات العنكبوت في خلايا حيوان ثديي، بهدف الحصول على نسختهم الخاصة بخيط العنكبوت، حتى أصبحت الشركة تمتلك ماعزًا معدلاً وراثيًّا ينتج البروتين نفسه في حليبها.

ويعرف عن خيط العنكبوت، أن له مواصفات ممتازة في تصنيع مواد مهمة؛ مثل الدروع التي تحمي الأجسام، والخيوط الجراحية، وحتى خيوط شباك صيد السمك وخيط الصنّارة.

لكن المشكلة التي تواجه القطاع الصناعي، تتمثل في إيجاد طريقة لإنتاج هذه المادة بكميات صناعية مجدية. وقد سبق للجيش الأمريكي أن أعرب عن اهتمامه بالموضوع منذ الستينيات، بعد أن تعرض آلاف الجنود الأمريكيين إلى الموت بفعل الطلقات النارية ذات الفعالية النافذة القادرة على تحقيق اختراق شديد في الجسم، والتي تعرف في بعض الجيوش العربية بالرصاص الحارق الخارق. ولم يكن بالإمكان

hiramagazine.com

إن خيوط العناقب اللينة والقابلة للتمطيط بعشرين في المائة من حجمها دون أن تتمزق، رغم شدة رقتها وشفافيتها، تعد أصلب الألياف الطبيعية على الإطلاق، ولها قوة تحمّل للضغط أقوى من قوة الفولاذ.

حماية جسد الجندي منها إلا بارتداء دروع ثقيلة الوزن معيقة للحركة؛ وقد وجد الجيش الأمريكي أن خيوط العنكبوت هي المادة المثالية لإنتاج درع واق خفيف الوزن وفعال جدًّا.

نجح العلماء أخيرًا في استخدام طرق الهندسة الوراثية لإنتاج خيوط العنكبوت، عن طريق جينات مستخرجة من العنكبوت نفسه، وهي أقوى من خيوط الحرير. ولذلك فإن هذه الطريقة ستتيح لهم التوسع في استخدام تلك الخيوط العنكبوتية لصناعة سترات واقية من الرصاص من نسيجه، وخيوط جراحية بمواصفات جيدة، كما قال الدكتور محمد الفار في المقال السابق الذكر. وقد روي عن سكان جزر السلمون أنهم كانوا يقومون قديمًا بصنع شباك صيد الأسماك من خيوط العنكبوت.

بيت العنكبوت

لم كان بيت العنكبوت أوهن البيوت؟ قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(سورة العنكبوت:٤).

لنركز في هذه الآية على قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾. هذا النص القرآني المعجز يشير إلى عدد من الحقائق المهمة التي منها:

١– الوهن المادي: إن بيت العنكبوت هو من الناحية

المادية البحتة أضعف بيت على الإطلاق، لأنه مكون من مجموعة خيوط حريرية غاية في الدقة، تتشابك مع بعضها البعض تاركة مسافات بينية كبيرة في أغلب الأحيان، ولذلك فهي لا تقي حرارة شمس، ولا زمهرير برد، ولا تحدث ظلاً كافيًا، ولا تقي من مطر هاطل، ولا من رياح عاصفة، ولا من أخطار المهاجمين، وذلك على الرغم من الإعجاز في بنائها.

٢– الوهن في بيت العنكبوت وليس في الخيوط: فقوله تعالى ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾، فيه إشارة صريحة إلى أن الوهن والضعف في بيت العنكبوت وليس في خيوط العنكبوت، وهي إشارة دقيقة جدًّا؛ لأن "خيط العنكبوت" ليس أوهن الخيوط، بل على العكس هو من أقواها نسبيًّا.. فـ"خيط الفولاذ مثلاً" أوهن منه.

٣– الوهن المعنوي: إن بيت العنكبوت من الناحية المعنوية هو أوهن بيت على الإطلاق؛ لأنه بيت محروم من معاني المودة والرحمة التي يقوم على أساسها كل بيت سعيد، وذلك لأن الأنثى في بعض أنواع العنكبوت تقضي على ذكرها بمجرد إتمام عملية الإخصاب، وذلك بقتله وافتراس جسده، لأنها أكبر حجمًا وأكثر شراسة منه. وفي بعض الحالات تلتهم الأنثى صغارها

hiramagazine.com

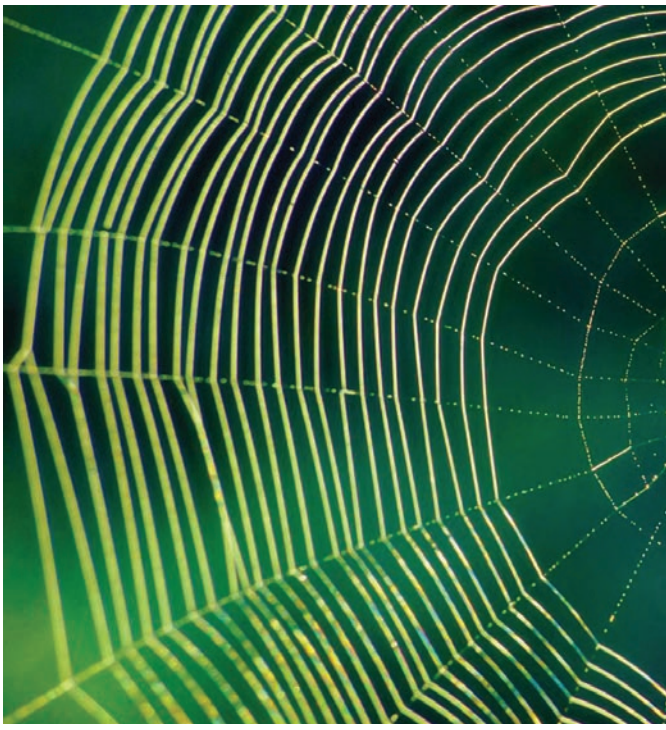

دون أدنى رحمة، في بعض الأنواع تموت الأنثى بعد إتمام إخصاب بيضها الذي عادة ما تحتضنه في كيس من الحرير.. وعندما يفقس البيض تخرج العناكب فتجد نفسها في مكان شديد الازدحام بالأفراد داخل كيس البيض، فيبدأ الإخوة الأشقاء في الاقتتال من أجل الطعام، أو من أجل المكان، أو من أجلهما معًا ،فيقتل الأخ أخاه وأخته، وتقتل الأخت أختها وأخاها حتى تنتهي المعركة ببقاء عدد قليل من العنيكبات التي تنسلخ من جلدها، وتمزق جدار كيس البيض لتخرج الواحدة تلو الأخرى، والواحد تلو الآخر بذكريات تعيسة، لينتشر الجميع في البيئة المحيطة، وتبدأ كل أنثى في بناء بيتها، ويهلك في الطريق إلى ذلك من يهلك من هذه العنيكبات. ويكرر من ينجو منها نفس المأساة التي تجعل من بيت العنكبوت أكثر البيوت شراسة ووحشية، وانعدامًا لأواصر القربى. ومن هنا ضرب الله تعالى به المثل في الوهن والضعف، لافتقاره إلى أبسط معاني التراحم بين الزوج وزوجه، والأم وصغارها، والأخ وشقيقه وشقيقته، والأخت وأختها وأخيها.

قام أحد العلماء بدراسة طبيعة البيت العنكبوتي من الداخل، فوجد أن الذكر بعد أن يقوم بتلقيح الأنثى،

إن العناكب تنتج خيوطها الحريرية -بشكل طبيعي- من بروتين ممزوج بالماء، تخرجها من فتحة صغيرة جدًا من أبدانها لتشرع في نسجها كما هو حال الخيط العادي.

تقوم الأنثى بافتراسه وتتغذى على لحمه طيلة فترة الحضانة للبيض، وبعد أن يفقس البيض تتغذى اليرقات على أضعفها، ثم بعد أن يقوى ويشتد عود ما تبقى من الصغار، تقوم بأكل أمها لأنها أصبحت أضعف الموجود، ثم يلقح الذكر الأنثى ثم تقوم بأكله وهكذا دواليك.

ومن هنا فإن الضعف في بيت العنكبوت، في ضعف الترابط الأسري بين أعضائه.

كلمة أخيرة

إن هذه الحقائق المدهشة، تدفعنا للتساؤل عن كيفية التوفيق بين وهن البيت في الآية الكريمة، وقوة المادة التي يبنى منها، وكيف يجتمع في منشأة واحدة الحد الأدنى من الوهن والهشاشة، والحد الأقصى من القوة والمرونة.

إن وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت فيه دلالة واضحة على إعجاز القرآن وأنه من عند الله، حيث لم يقل القرآن خيط العنكبوت أو نسيج العنكبوت، لأن الخيط بذاته له صفات خاصة تجعله من الخيوط القوية، وإنما قال بيت العنكبوت، ولعل التفريق بين وهن البيت، وقوة المادة التي يبني منها، يثبته استعمال الآية الكريمة لكلمة "بيت" وليس "خيطًا" أو "شبكة"، ليبقى القرآن يسطر لنا آيات وبينات معجزة، تخرس لها الألسن الحداد، وتذهل لها العقول المنصفة. ■

(*) استشاري في طب وجراحة العيون، وعضو الجمعية الرمدية المصرية.

hiramagazine.com

د. ممتاز أيدين*

ثقافة البيت العثماني

إذا ما ألقينا نظرة شاملة إلى المنازل التي عاشت فيها الأسرة العثمانية، نجد معظمها تحتوي على فناء واسع في أحد أركانه، لأن هذه المنازل كانت بمثابة عالَم خاص لسكانها. أول ما يلفت الانتباه في هذه المنازل، هي الأسوار العالية المحيطة بها والخالية من النوافذ، وذلك لحفظ سكان المنزل من الأنظار، وتأمين راحتهم وسلامتهم في الداخل. أما المدخل الوحيد في هذه المنازل، فيقع في الجهة المطلة على الشارع من السور. وعند تدقيق النظر في الباب الخارجي للمنازل العثمانية، نرى ثقافة تعكس مستوى الأخلاق، وتبين حسن الجوار، ومبادئ العرف والتقاليد لدى الشعب العثماني؛ فهذا الباب الذي يبلغ عرضه وكذلك ارتفاعه ٣-٣,٥٠ مترًا، مغطى بسقف صغير يقي الواقف أمامه من أشعة الشمس وقطرات المطر. والجدير بالذكر أن الأبواب الخشبية هذه، تنقسم إلى ثلاثة أقسام؛ مصراعان كبيران، وباب صغير مفتوح في أحد هذين المصراعين. أما المصرعان الكبيران لا يتم فتحهما إلا عند خروج العربات ودخولها إلى فناء المنزل، كما يتم استخدام أحد هذين المصراعين، عند إخراج الحيوانات وإدخالها إلى الفناء، ويظل المصراع الآخر ثابتًا لا يُفتح، أما الباب الصغير المفتوح داخل المصراع المتحرك فهو خاص بالأشخاص، وهو باب ترتفع عتبته عن الأرض بـ٢٥-٣٠ سنتيمترًا، ولهذا الارتفاع فوائد عديدة منها منع الأطفال من الخروج من المنزل دون مراقبة. وفي ضوء الأخلاق وحرمة المنزل لدى الأسرة العثمانية، كان الزائر لا يدخل المنزل إلا بعد إذن من صاحبه.

ومن الملفت للنظر في هذه المنازل أيضًا، مطرقات الأبواب، وهي -بلا شك- تبيّن مستوى الحضارة والأخلاق الذي وصلت إليه الدولة العثمانية في تلك الأيام؛ كانت المطرقة عبارة عن حلقتين من حديد متداخلة في بعضها البعض، أما الحلقة الكبيرة منهما فتصدر صوتًا خشنًا، والحلقة الصغيرة فصوتها أنعم من الكبيرة.. فإذا كان الزائر رجلاً دقّ الكبيرة فعلم أهل المنزل أنه رجل، أما إذا كان الزائر امرأة دق الحلقة الصغيرة فعلم أهل البيت أنها امرأة، وبذلك يتمكن مَن في الداخل مِن معرفة جنس الزائر، وبناء على ذلك يتم فتح الباب من قِبل النساء أو الرجال. وبالتالي يكون الدخول من الباب، إلى الفناء مباشرة وليس إلى غرف المنزل، وذلك لحفظ الحُرمة.

وفضلاً عن غرف المنزل، يوجد أيضًا في إحدى زوايا الفناء -وذلك وفقًا لحاجيات أهل المنزل- إسطبل، وتبّانة، وبيت لصناعة دبْس الفواكه، وورشة للحياكة والنسيج، وفيما تبقّى من المساحة، يوجد تنّور للخبز، وصخرة لغسيل الملابس، وأشجار، وأزهار، وبئر ماء، إلى غيرها من الحاجيات الأساسية التي يحتاجها أصحاب المنزل. ومن الأمور الجميلة في هذه المنازل أيضًا، تخصيص مساحة واسعة في فنائها لزرع الخضار. وبذلك يكون المنزل بكل أركانه عالمًا مثاليًّا لسيدته؛ حيث تستنشق فيه الهواء النقي، وتروّح عن نفسها، وتعمل براحة بال، وتستضيف جيرانها في فنائه.. وقد تحدثت الرحالة "جوليا باردو" عن هذه الأفنية في ذكرياتها عن إسطنبول عام ١٨٣٥ فقالت: "ليت شكسبير رأى هذه الأفنية قبل أن يكتب مشهد الحديقة لمسرحية روميو وجولييت".

هذا وقد بني السكن في ركن مناسب من أركان الفناء على شكل طابق أو طابقين، وثمة معايير أساسية أُخذت بعين الاعتبار أثناء إنشاء البيت، أهمها تعيين القِبلة، ورعاية الحرمة لمنزل الجار وسلامته من الأنظار.. وأهمّ هذه الأمور لدى الأسرة العثمانية المسلمة هي القِبلة.. ليس من أجل العبادة فقط، بل كانت تراعى القِبلة حتى في النوم والجلوس، وتعتبر جزءًا لا غنى عنه في الحياة.

تطل واجهة المنزل -المكوّن من طابق أو طابقين- إلى الشارع كما ذكرنا آنفًا، أمّا الطابق السفلي فيحتوي

على غرفة جلوس، ومطبخ، وبيت للمؤنة، وعنبر، وفرن لطهو الخبز.. ولم يكن لهذا الطابق نوافذ تطل على الشارع، وإن وُضعت فتكون صغيرة جدًّا؛ وذلك لحفظ سكانه من أنظار المارة وتأمين تحركهم بأريحية داخل المنزل. أما الطابق الثاني فيتم الصعود إليه عن طريق سلّم. يحتوي الطابق الثاني على صالة كبيرة تسمى "ديوان خانة"، وعلى جناح للحريم يسمى "حرملك"، وجناح للضيوف يسمى "سلاملك". وكان يوجد في بعض المنازل صالة صيفية أيضًا. وبالتالي زوِّدت إحدى هذه الغرف التي تسمى "كوشك"، بمشربية تطل على الشارع. ولا شك أن هذه المشربيات، أضفتْ جمالاً على المنازل العثمانية، وصبغتْ الشوارع بلون متميز يسر الناظرين.. صُمّمت نوافذ هذه المشربيات بطريقة تمكِّن سكان المنزل من مشاهدة الخارج دون أن يراهم أحد، كما أتاحت لصاحب المنزل أن يعرف طارق الباب دون أن يُرى.

يوجد في كل غرفة مدفأة، وموقد للطبخ، وموقد للإنارة. وأهم ميزة لهذه الغرف، احتواؤها على حجرة تتكون من حمام في إحدى زواياها، ومن خزانات يوضع فيها الفرش والألحفة، والأغراض المنزلية. ومما يجدر ذكره هنا، أنه لم يخصص في هذه المنازل غرف للجلوس أو للنوم أو للضيوف أو للأطفال كما في يومنا الحالي، بل كان سكان المنزل جميعهم يتناولون الطعام ويقضون ما تبقى من وقتهم في الغرفة نفسها، ثم إذا ما حل المساء بسطوا فرشهم وناموا في نفس الغرفة أيضًا، وفي الصباح يطوون الفرش ويواصلون حياتهم اليومية على نفس هذه الوتيرة.. كانت مفروشات المنازل العثمانية التراثية متواضعة للغاية، فبدلاً من الأثاث والأرائك التي نفرش بها منازلنا اليوم، كان يُجلس على المصاطب التي تبنى في كنار النوافذ، وغالبًا ما كان يُمدّ على الأرض بساط أو حصير، وأحيانًا سجادة مع طرّاحات على الأرض.

إذا أمعنا النظر في الطراز المعماري للمنازل العثمانية هذه، سنرى بوضوح تأثير الحياة الترحالية الرعَويّة؛ حيث أنشئت من مواد قصيرة العمر كالخشب، والطين، واللبِن، الأمر الذي يوحي بأن فكرة الهجرة والترحال لدى هؤلاء الناس حاضرة دائمًا.. ولعل هذا الأمر، يعكس نظرة المجتمع العثماني إلى الحياة؛ فهم ينشئون منازلهم بمواد سريعة التفتت والاندثار، ولكنهم حين يقيمون المنشآت للدولة أو للأوقاف الخيرية أو يقيمون المساجد.. فإنهم يستعملون موادًّا من الصخور والأحجار قويةً تبقى إلى ما شاء الله، وكأنهم يريدون بذلك أن يقولوا: إن منازلنا التي تمثلنا نحن البشر فانية، وإن المنشآت التي تمثل الدولة باقية.. بمعنى أننا نحن الفانون، والله هو الباقي.. واللافت للنظر أيضًا، أن هذه المنازل شبيهة ببعضها البعض بشكلها وطريقة عمارها، لذا يصعب تمييز منازل الأغنياء عن منازل الفقراء، وهذا -بدوره- يعكس لنا القيم المشتركة التي تبناها المجتمع العثماني، والتي لعبت دورًا كبيرًا في تقليل الفوارق بين طبقات المجتمع في الدولة العثمانية.

لم يكن اهتمام الشعب العثماني في منازلهم بالخضرة والنباتات فقط، بل كان للحيوانات أيضًا نصيب في ذلك؛ حيث كانوا يربّون الحيوانات في منازلهم للإفادة من لحومها وألبانها من جانب، ومن جانب آخر يعتنون بالطيور التي تتخذ المداخن والسقوف مسكنًا لها؛ كطائر اللقلق، وطائر السنونو، بل كانوا يعتبرون هدم أعشاش الطيور هذه ذنبًا كبيرًا.

لا شك أن الاعتناء بداخل هذه المنازل أكثر من خارجها، وثيق الصلة بهيكلة الأسرة الإسلامية.. فرغم انغلاق هذه المنازل على العالم الخارجي، فإنها كانت تلبي كل ما تحتاجه الأسر في تلك الآونة.

ولكن مع تحوّل الفهوم حول عالم المنزل، وتبدّل طراز العمارة والهندسة، بدأنا نبتعد عن تراث أجدادنا العريق هذا، الذي ركّز بالدرجة الأولى على الإنسان وإصلاحه وبالتالي سعى إلى تأمين راحته وسعادته.. ولكن رغم ذلك تبقى تلك المنازل التراثية واحدة من نماذج هندستنا المعمارية النبيلة، تذكرنا بماضينا العريق، وتدفعنا إلى بناء مستقبلنا المضيء. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

hiramagazine.com

عبد الله العزاوي*

بلغيه سلامي

أشكو فراقكِ هل شكوتِ فراقي ... سأظلُّ مُرتهنًا لحين تلاقي
هَل قد عزمتِ على الرحيل حقيقة ... وتركت قلبًا موثقًا بوثاق
يبقى عزائي أنَّ قصدُك رائعٌ ... وستذهبين لدعوة الرزاق
من كان يسعى للأجل مكانة ... هانت عليهِ مصاعبُ الآفاق
يا من نويت إلى الحبيب تريثي ... وخذي الفؤاد إليه صُحب رفاق
يشكو إليه تذللي ومحبتي ... ويبث عن بعدٍ له أشواقي
وَقفي على القبر الشريف وسلمي ... بعد الصلاة عليه في الأَرواق
في روضة لا يستطيعُ بلوغها ... إلا الذي يسعى مِنَ العشاق
وإن استطعت فقبلي بتذلل ... طرف الدثار وعانقيه عناقي
قولي لهُ والله ما مرَّ اسمُهُ ... إلا وسالَ الدمعُ من أحداقي
وصفي له وجدي وفيضَ مشاعري ... حتى ملأتُ بعطرها أوراقي
يا صاحب الإسراء معجزةَ الورى ... والبالغ الأقصى بغير سباقِ
وجمعت كل الرسل كنت إمامهم ... ثم ارتقيت إلى السما ببراقِ
ومصاحبًا جبريل خير معيةٍ ... حتى بلغتم سدرة الخلاقِ
قال الأمين ادخل فأنت مخولٌ ... أما أنا فبنورها إحراقي
إن يسألوا الصدّيق عنه أجابهم ... إن قالها فلكم عليه صداقي
يا سيد الكونين يا نور الدجى ... هبنا الشفاعة قبل موت عراقِ
وانظر إلينا قد تفرق عقدنا ... كل يسير إلى هواه بساقِ
لم يبق غير الله نمسك حبله ... ونزيل أحقادًا لنا بوفاقِ
يا من جَعلتُ هواهُ مِلءَ مكامِني ... مُتجردًا من غاية ونفاقِ
سأظلُّ ألهجُ ما حييتُ بذكرهِ ... والعشقُ أنبلهُ يكونُ الباقي

(*) شاعر عراقي.

د. رشيد كهوس*

نداء الحب

كانت السماء صافية، والربيع ساحرًا.. انتشر حيث كنت أجلس قرب روضة الحبيب عَبَقٌ من الأريج والعبير، ورائحة الفُل واليَاسَمين.. مَرَّ بي أحدُ أصدقائي القدامى، قال: أنت اليوم سعيد جدًّا، هذه المشاعر الجميلة، وهذه المسرات الحسية، وهذه البهجة والسرور.. من أين تأتي بها؟ وأنا أمتلك أموالاً وأولادًا وشهرة في الأنام، لكن ما أحسست يومًا بهذا الشعور والإحساس، وهذا الفرح الذي أراه على مُحَيَّاك! قل لي: ما سر هذا؟ وهل رغم ما في هذه الحياة من عقبات كأداء، تعيش مسرورًا هكذا؟

قلت: يا عزيزي لقد علّمني الحب أن الحياة مليئة بالأحجار، لكن يجب أن لا أتعثر بها، بل أصنع منها سلّمًا يقودني للنجاح.. فمن وسط الدُّلجة والحُلكة وبراثين الظلام، يبزغ الفجر ويشرق النور.

أما عن سبب هذه البهجة والسرور، فإن اليوم يوم ذكرى مولد رسول الله ﷺ؛ يوم عمَّت فيه المسرات قلوب المحبين، وبدا السرور على وجه الكون والحياة. لقد زرعت ذكرى مولد رسول الله ﷺ في ذاكرتي، ذكريات لن تنضب بسهولة.

قال الصديق: أنا غريب عن هذا، أرجوك زدني.. كلامك نفذ إلى قلبي.. حدثني عن هذا الحبيب الذي يبتسم له ثغر الكون، ويخضر له زهر الربا، ويبعث الروح به في الحياة.

قلت: إطلالته رائعة، طلعته بهية، وجهه أبهى من البدر، كأن شمس الضحى تجري في ملامحه.. جماله سماوي، بهاؤه أزلي، نفَسه أطيب من الطيب.. نظراته

ربانية تحيي موات القلوب، ابتسامته لؤلئية تضرب في أعماق الفؤاد.. صوته عذب وبريء، كلماته رقيقة، عيونه سوداء صافية كالبلّور من أروع ما صاغت يد الله، تلمع كالبرق تفيض بالرقة والحنان، لا تعرف القسوة أو الجفاء.

حدق عينه من خالص العين، تضرب أهداب عينيه خدوده النورانية.. مقرون الحاجبين كأنهما هلالين مشرقين، ناعس الطرف، كحيل العين، براق الثنايا.. جبينه يلح مثل مصباح الدجى المتوقد.. كفاه كالسندس والإستبرق.

مربوع القامة في غير سمنة، بشرته بيضاء مشربة بالحمرة.. فاق بدر السماء حسنًا وبهاء، بل اجتمعت فيه كل المحاسن.. نسيم الفجر برقته، والعسل بطن كفيه.. إن مر بحي حلّت به الأنوار، أو هلّ به أزهرت الأغصان.

إذا نطق حيّر العقول بجوامع كلمه، وإذا سكت أبهر الألباب بهدوئه وسكينته، يشع من كلامه النور في كل اتجاه.. كامل الأوصاف، بل الحسن فيه اكتمل، جمع الله له بين جمال الباطن والظاهر، وهو فوق الوصف.. إنه اصطفاء إلهي بحت. سبحانه؛ يصطفي من يشاء ويختار.

خلقت مبرأ من كل عيب

كأنك قد خلت كما تشاء.

تغير وجه صديقي المتفائل وقال -وهو يكاد يطير من شدة الفرح- والدموع تنساب من عينيه على خدّيه: أشعرتني بخصابة الروح بذكرك هذا النبي العظيم، ومثل تحفة فنية رائعة أضفيت الانسجام والهدوء على حياتي الروحية والنفسية.. لقد هزني حديثك، وبعث فيّ الأمل.. فالدنيا بخير ما دامت روحانية هذا الحبيب العظيم والمصطفى الأمين تسري فيها.

قلت: ذكْر سيدنا محمد ﷺ يهز الإنسان الحي.. حبه يحرر من الخوف والضياع.

قال: كنت قبل سماع حديثك عن هذا الرسول الكريم أعاني من كسوف الروح، والآن بدأت الحياة تسري في كياني، والسعادة في قلبي.. لقد ألهبتَ مشاعري وهيجتَ عواطفي.. فأرجوك زدني عن حبه وصفاته حتى كأني أراه، فربما لا أعيش إلا لحظات..

ألح عليّ ووجهه غارق في الدموع.. بدأ عطر ذكر الحبيب ﷺ يملأ المكان.. والقلوب تتحرك، تحس بشيء غريب؛ وكأن الحبيب الطبيب ﷺ قادم. فكان الأمر كذلك؛ إذ طلع هلال شهر ربيع الأول، وأشرقت شمس الثاني عشر منه، وأشرقت معه ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ وكأنه حي بيننا بطلعته البهية.

فإذا بصديقي، بالحديث عن صفات رسول الله ﷺ وشمائله وأخلاقه الكريمة، يجد نسيمًا عليلاً ومنظرًا جميلاً يأسر كل القلوب، ويزيل كل الهموم والكروب، ويملأ القلب فرحًا وسعادة ونشوة وسرورًا.

وقال بصوت شاد مثير: لم أعرف الحب ولا كنت ممن يدخل الحب قلبه، لكن من يسمع أخلاق نبي الأمة ومنقذها وصفاته، يهيم ويعشق.. ولم أكن ممن يؤمن بسحر الجمال السماوي، حتى فاجأني اليوم سحر جماله.

كنت أنتظر شخصًا يدخل حياتي فيمنحني السعادة والبهجة طوال العمر، فكان حب رسول الله ﷺ ذاك الشخص الراقي الذي اقتحم حياتي، وأضرم نيران الحب في أعماقي.. وكأن قلبي كان في انتظاره منذ زمان.

هو الآن ﷺ أصبح كل شيء في حياتي.. أصبح عمري ومستقبلي وحاضري وأحلامي، وأصبح سعادتي ومنيتي وأملي، أصبح مَن ينبض له قلبي.. أصبح الآن قمر يضيء سمائي، أصبح هو الحب والحبيب.. وهو الكنز الذي كنت أبحث عنه، لقد لقيتُ به الطريق الصحيح والصراط السوي.

ثم أنشد يقول:

وددت بأن الحب يجمع كله

فيقذف في قلبي وينفلق الصدر

لا ينقضي ما في فؤادي من الهوى

ومن فرحي بالحب أو ينقضي العمر

لكن الدموع منعته من إتمام قوافيه هذه.

وقفل عائداً إلى بيته، والسعادة الكبرى التي عاشها في روضة الحبيب وفي ذكرى الربيع، والفرح والسرور تغمر قلبه. ■

(*) أستاذ بجامعة محمد الأول / المغرب.

hiramagazine.com

د. ناصر أحمد الكناني*

الحشرة الخارقة

١ البعوضة حشرة ضئيلة من ثنائيات الأجنحة (Diptera)، لا يتغذى ذكَرها على الدماء وإنما على رحيق الأزهار، وليس له أيّ دور لِلّسعات المعهودة من البعوض.. لكن الأنثى، فمها مصمم بشكل يناسب ثقب جلد الإنسان والحيوانات ذات الدماء الحارة.

تُعتبَر الأنثى مصدرًا غنيًّا بالبروتين لإنتاج البيض، تفرز على الجرح سوائل من غدتها اللعابية تؤدي إلى الاحتقان، وتمنع تجلط الدم؛ فتجعله ينساب بسهولة إلى فمها. ولكن إذا كانت الأنثى حاملة لكائنات دقيقة تسبب الأمراض؛ انتقلت إليها من لسعة سابقة لإنسان أو حيوان مصاب، فيُحتمَل أن تَنقل هذه الكائنات عبْر سوائل الغدة اللعابية وتنشر الأمراض في محيط واسع.. لذا ليست خطورة هذه الأنثى في طنينها المزعج، أو في لسعاتها التي قد تكون مؤلمة ومسببة للحكة والاحتقان فحسب، بل خطورتها فيما تنقل من كائنات تسبب الأمراض الوبائية الخطيرة أو الفتاكة؛ وهي طفيل الملاريا (Plasmodium)، وطفيل الفلاريا الذي يسبب داء الفيل (Elephantiasis)، والفيروسات المسببة لمرض الحمّى الصفراء (Fever Yellow)، والحمّى المخية (Encephalitis)، ومرض أبو الركب أو حمّى الدنج (Dengue Fever)، والحمّى النازفة (Fever Hemorrhagic)، وحمّى الوادي المتصدع (Rift Valley Fever).. ويمتد خطرها إلى عديد من الطيور والثدييات كذلك، ومن تلك الأمراض؛ مرض دودة القلب (Heartworm Disease) الذي يصيب الكلاب خاصة، ونادرًا يصيب الإنسان، وهو ناتج عن الإصابة بنوع من طفيليات الفلاريا.

تتكون حشرة البعوض من رأس وصدر وبطن كباقي الحشرات. ولها ثلاثة أزواج من الأرجل الطويلة النحيلة، ولها زوج من الأجنحة وعضوان بجوارهما في موضع

زوج آخر ضامر من الأجنحة يستخدمان كأعضاء توازن، وتوجد قشور عديدة على أوردة الجناحين تزيد من قدرة الجناح على الطيران.

تبيض البعوضة ١٠٠-٤٠٠ بيضة، وتفرز منها آليات التوازن البيئي أعدادًا قليلة تستطيع إكمال الحياة وبلوغ طور النضوج، في مدة تبلغ ٧-١٠ أيام في بعض الأنواع. كما يمكن أن تولد البعوض في حدود أسبوعين بعد وضع البيض إذا ما توافر الماء؛ لأنه ضروري لفقس البيض وحياة اليرقات والعذارى، ويمكن للبيضة الكُمونَ لفترات طويلة في انتظار الماء. وقد تفقس البيضة بعد ١-٣ أيام من وضعها، لتتحول إلى يرقات تمكث بدورها من خمسة أيام إلى عدة أسابيع، قبل أن تتحول إلى عذراء. واليرقات أو الدعاميص نشطة الحركة، لذا تسمى بـ"الهزازات"، تأكل بشراهة، وتتغذى على الطحالب والمواد العضوية في الماء. وهي من النهم والشراسة، إذ تتغذى على يرقات أمثالها.

تتنفس اليرقات عن طريق أنبوب ناحية الذيل، وعند إثارتها، تأتي بحركة لولبية، لذا تسمى بـ"البهلوان". تمكث اليرقات يومين أو ثلاثة أيام قبل خروجها من غلافها حشرة كاملة، وتتهيأ بعد مدة قليلة للتزاوج. يوجد من البعوض أكثر من ألفين أو ثلاثة آلاف نوع ينتشر في بيئات مناخية مختلفة، ليبلغ كل منطقة يعمرها الإنسان، ويمتد من المناطق الاستوائية حتى الدائرة القطبية، ومن الأودية إلى رؤوس الجبال.. ولكن كيف تستطيع

بعد أن تجد البعوضة نوع الدم المناسب لها، تشرع بالبحث عن مكان رقيق وفيه كمية دم غزير كالأوردة والشعيرات الدموية تحت الجلد، ثم تحدد مكانًا معينًا بواسطة الشفاه الموجودة في الخرطوم، وتبدأ بعملية المص.

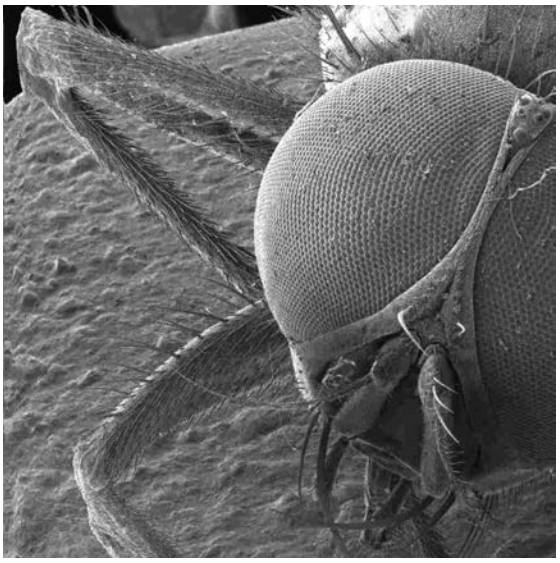

إن الحس البصري لدى البعوضة يعادل ١/١٠٠٠ درجة بالنسبة للحس الحراري. والبعوضة تملك حوالي ١٠٠ عيينة، وهذه العيينات موجودة في الرأس على شكل يشبه قرص العسل.

البعوضة أن تتحول؟ من أين أصبحت لها هذه القابلية في تغيير جلدها ثلاث مرات، وبعدها تصبح بعوضة كاملة؟

إنها عناية الله تعالى وبديع صنعه، قال ﷻ: ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾(النمل٨٨)، وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾(الأعلى:٣). إذن، الله ﷻ قدّر لها أن تعيش فهداها لطريقة عيشها.. إنه الله ﷻ الذي وضع خطة التكوين، وقدّر المقادير لكل شيء، وهو العليم الحكيم.

البعوض يدرك الكائنات الحية

إن البعوضة لها قابلية الحس بالكائنات الحية بواسطة حرارتهم. فإن البعوضة تستطيع أن تلتقط حرارة الأجسام بشكل ألوان. ولكن هذا الحس للحرارة، لا يعتمد على أشعة الشمس أي على الضوء؛ فإن مقدار الحس البصري لديها يعادل ١/١٠٠٠ درجة بالنسبة للحس الحراري. والبعوضة تملك حوالي ١٠٠ عيينة، وهذه العيينات موجودة في الرأس على شكل يشبه قرص العسل. تقوم عين البعوضة باستلام هذه الإشارات وتنقلها إلى الدماغ. والإناث من البعوض -كما أسلفنا- هي التي تتغذى على الدم، أما الذكور فتتغذى على رحيق وعصارات النباتات.

تستعمل البعوضة تقنية تجلب الحيرة للعقول؛

hiramagazine.com

إن البعوضة تملك قابلية الحس بالكائنات الحية بواسطة حرارتهم. وإن البعوضة تستطيع أن تلتقط حرارة الأجسام بشكل الألوان. والإنثاث من البعوض هي التي تتغذى على الدم، أما الذكور فإنها تتغذى على رحيق وعصارات النباتات.

فالنظام المعقد المستعمل كالتالي:

١- عندما تحط البعوضة على الهدف، أولاً تقوم بشم الدم ومعرفة إنْ كان دمًا مناسبًا لها أو غير مناسب. فإن وجدته غير مناسب تركته وبحثت عن غذاء آخر.. وبناء على ذلك تتعامل مع الإنسان باعتبار رائحة دمه. لذا نجد بعض الناس لا يتأثر بلسعات البعوض حتى ولو كان في وسط موبوء بالملاريا.

٢- بعد التأكد أن نوع الدم مناسب لها، تقوم بالبحث عن مكان مناسب رقيق وفيه كمية دم غزير، كالأوردة والشعيرات الدموية التي تحت الجلد، ثم تحدد البعوضة مكانًا معينًا بواسطة الشفاه الموجودة في الخرطوم، لأن للبعوضة إبرة مغلفة بغلاف خاص، تخرجها عندما تقوم بمص الدم (وهي عبارة عن تجويف في الشفة العليا). إن الجلد لا يثقب بواسطة هذه الإبرة كما هو يُتَصوّر، ولكن بواسطة الفك العلوي الذي يشبه السكين، والفك السفلي الذي يحتوي على أسنان مائلة نحو الداخل. فالفك السفلي يعمل مقام المنشار؛ أي يتحرك مثل المنشار في الجلد والأوعية الدموية.. ويحتوي تجويف الشفة السفلى على سائل لزج يساعد بقية أجزاء الفم على التجمع معًا كأنها عضو واحد. والجلد ينشق بمساعدة الفك العلوي الذي يكون بمقام السكين، ومن المكان المنشق تدخل الإبرة المكونة من تجويف الشفة

العليا واللسان إلى أن تصل إلى العرق وتقوم بعملية مص الدماء.

وكما هو معروف عن جسم الإنسان؛ عندما يخرج الدم من مكان، فيتخثر في مدة قصيرة بمساعدة الأنزيمات الموجودة في الجسم. إذن تبدو هذه الأنزيمات مشكلة للبعوضة؛ لأن الثقب الذي أحدثته البعوضة سينغلق بعد مدة قصيرة، مما يعني أنها لن تستطيع امتصاص الدم بالقدر الكافي.. ولكن الحقيقة ليست كذلك، لأن البعوضة تقوم بصنع مادة في جسمها تفرزها في جسم الإنسان في تلك المنطقة.. مادةٍ تمنع من تخثر الدم، كما تقوم هذه المادة بإحداث تهيج في الجلد، مما يسبب توارد الدم إليه، وبذلك تكمل عملية امتصاصها للدم. والبعوضة عندما تلدغ الإنسان من مكان معين، فإن هذا المكان ينتفخ ويحمر، فيحس الإنسان بحكة، وسبب ذلك هو الأنزيم الذي قامت البعوضة بإفرازه لمنع التخثر.

لا شك أن هذه الأعمال تضعنا أمام أسئلة كثيرة، منها: كيف تعرف البعوضة صلاحية الدم من عدم صلاحيته؟ كيف تعرف البعوضة وجود هذا الأنزيم الذي يخثر الدم؟ كيف تبطل البعوضة مفعول أنزيم التخثر

hiramagazine.com

بصنع أنزيم خاص؟ وما هي هذه المادة الكيميائية، ومتى يحدث هذا؟ كيف تستطيع البعوضة أن تصنع هذا الأنزيم داخل جسمها، ثم تقوم بنقله -بواسطة تقنيتها- إلى جسم الإنسان؟

جواب هذه الأسئلة بسيط؛ إن البعوضة لا تستطيع أن تفعل أي شيء، لأنها لا تملك عقلاً مدركًا، ولا معلومات حول الكيمياء، ولا مختبرًا لتصنيع هذه الأنزيمات.. فالحشرة التي نتكلم عنها، لا يزيد طولها عن بضع ملليمترات، ولا عقل لها ولا علم. فالذي خلق الإنسان وخلق هذه البعوضة -الحشرة غير العادية الخارقة- وجعلها صاحبة هذا النظام الدقيق الخارق المعجز الذي يصيب الإنسان بالذهول، هو الله الخالق البارئ المصور.. هو الله القادر على إعادة الخلق مرة أخرى، ويبعث الخلق إذا أراد.

هل لنا أن نتأمل كيف أن البعوضة تمتلك جهازًا لتحليل الدم دون أن يدخل الدم إليه.. فهي على بعد من الدم تستطيع أن تحلل الدم إن كان صالحًا لها أو لا قبل أن تخترق الجلد. وهل لنا أن نتأمل جهاز التخدير الذي أودعه الله في البعوضة، إذ لولاه لكانت عندما

عندما تحط البعوضة على الهدف، تقوم أولاً بشم الدم ومعرفته إنْ كان دمًا صالحًا أم لا، فإن وجدته غير صالح تركته وبحثت عن دم آخر. والبعوضة تتعامل مع الإنسان باعتبار رائحة دمه، لذا نجد بعض الناس لا يتأثر بلسعات البعوض حتى ولو كان في وسط موبوء بالملاريا.

تقف على جلد الإنسان وتغرس خرطومها، لشعر بها ولقتلها، لكنه لا يشعر بها إلا بعد أن تمص دمه وتذهب. كما تختار البعوضة الضحايا الأصغر سنًّا، بسبب ارتفاع نسبة الهيموجلوبين في دمهم عن الكبار.

هل لنا أن نتأمل مد الجناح في ظلمة الليل البهيم وهي تعرف طريقها إلى الإنسان؟ هل لنا أن نتأمل عظمة الله في خلق البعوضة، تلك الحشرة المعجزة المدركة للكائنات الأخرى؟ وتم دراسة السلوك الفطري الغريزي للبعوضة، فأظهرت أنها تقوم بعدة جولات سريعة فوق الضحايا، والغرض هو قياس معدل الأيض لكل جسم نائم عن طريق كمية الماء في الزفير والإشعاع الحراري، لأنه كلما ارتفع كان الضحية أصغر سنًّا.

أما بالنسبة للحشرة التي فوق البعوضة فهي بيضة من حشرة أخرى تفقس لمجرد جثوم البعوضة على جسم دافئ وتخرج منها يرقة من البيضة التي على جسم البعوضة (Pupa)، وتتجه إلى الثقب الذي أحدثته البعوضة، لتتغذى على الأنسجة في الداخل، وتكون دودة تحت الجلد على شكل دمل كبير مؤلم جدًّا، وهي تابعة لنوع من الذباب يعيش في أمريكا الجنوبية. ■

(*) كلية العلوم، جامعة الملك عبد العزيز / المملكة العربية السعودية.

hiramagazine.com

تاريخ وحضارة

د. إسماعيل جولاك*

الوعي بالتاريخ واستشراف المستقبل

١ التاريخ مرآة، يرسم هوية الأمم، ويحفظ ذاكرتها، وينقل ثقافتها، ويورث قيمها إلى أجيالها القادمة. والتاريخ هو الشاهد على اندثار الأمم واضمحلالها، أو هو الشاهد على امّحاء الأقوام التي انبَتّتْ عن ماضيها؛ فاغتربت عن قيمها الروحية وابتعدتْ عن ثقافتها الذاتية. ولا شك أن التقدم الذي حصل في التاريخ، كان مبعث إلهام في حمْل الأمانة، والتحليق بها في سماء الإنسانية الشاسعة. ومن هذا المنطلق يعد التاريخ باعثًا دينامِيًّا يوقد في الشعوب آمالاً لا تنطفئ؛ يشحذ الهمم، ويقوّي العزائم، ويثبّت الإرادات دائمًا، لتبلغ تلك الشعوب قمم الآمال، وتحقق أسمى الغايات.

يشير المؤرخ التركي محمد كابْلان إلى حقيقة التاريخ فيقول: "إن الأجيال التي تجهل تاريخها، تفقد شعورها بالمسؤولية تجاه أمتها.. ولا تبلغ تلك الأجيال مستوى الكمال إلا بالاندماج مع أمتها وتاريخها". وفي السياق نفسه يقول المؤرخ التركي نور الدين طوبجو: "كما يستحيل لإنسانٍ العيش بروح الآخرين، فيستحيل لأمةٍ -كذلك- البقاء على قيد الحياة بتاريخ أمم أخرى".

عندما خلق الله البشر جعل من طبيعتهم الخطأ "كل ابن آدم خطّاء"، وهو أمر جُبل الناس عليه.. وهذا ما يجعل الإنسان في محاسبة نفسية دائمة، وضبط لسلوكه وتحركاته باستمرار، لكي لا يبقى منحرفًا عن الطريق السوي ويظل مبتعدًا عن الصواب المؤدي إلى الراحة والاطمئنان في الدنيا والآخرة، والتاريخ بدوره يعدّ من أهم العناصر التي تساعد هذا الإنسان على ضبط أهواء النفس والإمساك بزمامها. ولا ننكر أن جلّ الأزمات التي نعاني منها اليوم، والعقبات التي تعرقل علينا طريق

التقدم، هي ثمرة لشجرة الأخطاء التي زرعناها في تربة الماضي. ولا سبيل لاجتياز هذه العقبات، إلا بعقد صلة وثيقة بيننا وبين تاريخنا، ثم تحويل هذا التاريخ إلى مصدر نستلهم منه طاقتنا ونعزز قوتنا لنقيم عالمنا الجدير بأن يكون نموذجًا للإنسانية جمعاء بقيمه ومبادئه السامية.

التاريخ والمنظور القرآني

يجب أن ننظر إلى التاريخ بعين البصيرة والعبرة كما ننظر إلى القصص القرآني ونستخلص منه العبر. فالقصة القرآنية تقدّم لنا أسلوبًا ومنهجًا منتظمًا وفكرًا مرشدًا حول معاني التاريخ وجوانبه التي يمكن أن نتتبّعها ونستفيد منها. القرآن الكريم لم يتناول الوقائع والأحداث عشوائيًّا دون هدف، بل يتغيّا غاية سامية هي توجيه الإنسان إلى سبيل الرشد والصواب. وإذا جمعنا هذه الغايات في مكان واحد، تظهر لنا جليًّا المبادئ التي لها الدور المهم في تشكيل المجتمعات وتعيين مستقبلهم. وفي الوقت الذي تكشف هذه المبادئ عن خصائص الإنسان والمجتمعات، وكذلك عن أسباب السعادة والحزن، والتطورات، والعلل، ونقاط الضعف، والأمن والسلام.. فإنها بالمقابل تلقي الضوء على الأسباب التي تؤدي إلى عز الأمم أو ذلها، ومن ثم إلى السلوك الأخلاقي، والعادات والتقاليد التي تنجم من هذه الأسباب.

يهدف القرآن الكريم إلى هداية الإنسان وإسعاده، ويدعو هذا الإنسان -وبإلحاح- إلى إحقاق الحق، وتطبيق العدل، وبلوغ الكمال، وتقديم الخير، والأمر بالمعروف، وإحلال الأمن والسلام.. فيقوم بتقديم

نموذج الإنسان الصالح والإنسان الطالح من جانب، ومن جانب آخر بتقديم المجتمع الصالح والمجتمع الفاسد؛ وذلك من أجل تربية الإنسان الفرد، وإكسابه الشعور بالمسؤولية تجاه أمته والإنسانية جمعاء. فمثلاً يقدم لنا نماذج من الأنبياء الصالحين؛ كسيدنا نوح، وهود، وصالح، ولوط، وموسى، وإبراهيم عليهم السلام.. وبالمقابل، يقدم لنا أمثلة من الفاسدين الأشرار؛ مثل فرعون، والنمرود، وقارون وغيرهم.. مبرزًا أفعالهم الشنيعة، وتصرفاتهم الظالمة.

ومن ثم يقوم القرآن الكريم بالنصائح والإرشادات التي تحول بين الإنسان وبين شَرك الأخطاء التي اقترفتها الأمم البائدة، والتي أدت إلى سقوطها وانهيارها في القديم الغابر حيث يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾(يوسف:١٠٩)، ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾(السجدة:٢٦)، ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(هود:١٢٠).

فرصٌ يقدمها التاريخ

من الأدوار الهامة التي يؤديها التاريخ، هو إقامة الجسور بين الماضي والحاضر، ومن ثم تنوير الحاضر بإيجابيات الماضي، وذلك لأن الماضي هو جوهر الحاضر ونواة المستقبل.

إن ما جنيناه من روضة التاريخ، هو ضمان وجودنا في الحاضر، وإن استثمار مكتسبات الماضي استثمارًا جيدًا، يوطد لنا المكانة التي سنتربع عليها في المستقبل. ولذلك لا يمكن أن نستغني عن خبرة الماضي وتجاربه التي ستعمر لنا عالمنا وتنشئ مستقبلنا، لأن التاريخ هو بمثابة وعاء تجتمع فيه أسباب ارتقاء الأمم وكذلك أسباب انحطاطها. وفي هذا السياق يقول المؤرخ الفيلسوف ليون أ. هالكين: "الوعي بالتاريخ ضروري لاستشراف المستقبل".

يعد التاريخ دليلاً ماهرًا في إرشاد الإنسانية، وتبيين الطريق لها كالنجم القطبي تمامًا. والتاريخ أيضًا هو الذي يقدم إمكانية استشراف المستقبل، والإطلال عليه من أعلى برج الرصد. ولعل كلمات المؤرخ التركي عبد الحميد صديقي شاهدة على ما نقول: "لا شك أن التاريخ هو فنارٌ ينبئ راكبين بحرَ الحياة الجدد، بالصخور الخطيرة المختبئة في قيعان بحر الوجود". لذا يجب أن نعي التاريخ جيدًا ونسير على الدرب الذي خطّه لنا، لكي نستعيد مكانتنا بين الأمم، ونرتقي في التوازن العالمي إلى القمم.

شحذ الماضي للهمم

ومما لا يرقى إليه أدنى شك هو أن التاريخ يحمل في طياته قيمًا ترفع من معنويات الشعوب وتشحذ هممها ثم تدفعها إلى تبني الدولة والأوطان التي تعيش على تربتها. وبالتالي لا يمكن أن ننشئ المستقبل دون الاستعانة بالقيم التاريخية والمعنوية والذاتية.. وفي ضوء ذلك يقول الشاعر والأديب التركي الشهير يحيى كمال بياتلي: "أنا المستقبل الذي تمتد جذوره من الماضي". ويقول الأديب التركي أحمد حمدي تانبينار أيضًا: "لا يمكن تصور مستقبل دون ماضيه".

وكذلك المفكر الفرنسي فولتير يؤكد هذه الحقيقة فيقول: "التاريخ هو روضة الأمم، وكل أمة تحصد ما غرسته في هذه الروضة لبناء مستقبلها". أي إن حصاد الآمال المستقبلية، وثيق الصلة بالبذور التي نثرت في روضة التاريخ.

وفي إطار مقولة "أنا المستقبل الذي تمتد جذوره من الماضي" نؤكد أن إنشاء مستقبل قوي، وثيق الصلة باستلهام الماضي والنهل من قيمه الروحية والمعنوية. وإذا تشبعنا قيم ماضينا السامية، وتشربنا من معينه الفياض، وجددنا أنفسنا وفق متطلبات العصر، وبقينا حركيين نشطين، ثم وفّينا بعزم وحزم إرادتنا حقها، فإننا -بلا شك- سنسترجع في المستقبل القريب مكانتنا في التوازن العالمي، وقوتنا بين الدول. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

د. فؤاد البنا*

إعصار الكبر الحارق

أدرج الإسلام الكبر ضمن قائمة كبائر الذنوب التي لا يغفرها الله كالشرك إلا بتوبة. وتوعد الله المتكبرين بالطبع على قلوبهم، وبالصرف عن آياته في الأرض، وبإغلاق أبواب الرحمة في وجوههم، وأنهم سيدخلون جهنم داخرين وخالدين فيها أبدًا، وأنهم لا أمل لهم في دخول الجنة إلا بقدر أمل الجمل في ولوج سمّ الخياط.

ونظرًا للوعيد الشديد الذي توعّد الله به المتكبرين، فقد يتساءل البعض عن حكمة هذا التشديد على الكبر، والشدة على المتكبرين، ولكن إذا عرف السبب بطل العجب.

إن هذا الإسلام دين التوحيد الإلهي والوحدة الإنسانية، والمتكبرون يقومون بفصم عرى الأمرين، حيث يهدرون حقوق الحق والخلق، فيبددون الوحدانية والوحدة.

لقد جاء الإسلام من أجل إسعاد الناس وتحقيق خيرهم العاجل والآجل، بجلب المنافع لهم ودفع المضار عنهم، وإذا كان الله قد تساهل في حقوقه، رحمة منه وتفضلاً، سوى الشرك بالطبع، إذ بناها على المسامحة كما يقول الأصوليون، فقد بنى حقوق الخلق على المشاحة، لكن المتكبرين يحرقون بنيران كبرهم كل شيء.

نار الاجتياح

إن الناظر في حقيقة أعمال المتكبرين؛ سيجدهم يسلطون جوانحهم وجوارحهم على حقوق الناس، اجتياحًا وبغيًا وإفسادًا، حيث تصير شخصياتهم جرافات ضخمة تجتاح حريات الناس، وتستبيح حرماتهم، حتى لكأنها شعلة نار متقدة أو إعصار حارق، أو جحيم يتسعر ونار تتلظى، كما سيتضح من خلال هذه الجولة السريعة في الجوانح والجوارح.

عقول الازدراء

إن عقول المتكبرين تطير بأجنحة العجب والفخر والاغترار، وتكتظ بأفكار الزهو، وتمتلئ بطاقات العنجهية وتوتر الاستعلاء، وتعج بمزاعم احتكار الصواب وامتلاك الحقيقة المطلقة، في مقابل اتهام الآخرين بالسفه والطيش، وبالتبلد والغباء، وبالتخريف والتخريب، بل

بالخيانة والعمالة، وبالضلال والكفر.

عجب القلوب

وتمتلئ قلوب المتكبرين بأهواء التميز والتفرد، ومشاعر العجب والاكتمال، مقابل انتقاص الآخرين واحتقارهم، والزراية بهم والنيل من محاسنهم.

وتعج هذه القلوب بانفعالات الحقد والحسد، وبأدخنة الكراهية لكل صاحب نعمة وذي موهبة.

أعين الازدراء

لا تنظر أعين المتكبرين إلى الآخرين إلا شزرًا، ولا تكف أبصارهم عن الإزلاق، ولا تتوقف مآقيهم عن الاحتقار، ولا تجد مقلهم متعتها إلا في انتقاص أصحاب المظاهر المتواضعة وازدراء ذوي الحاجات الخاصة، بل إن هذه الأعين ترى جميع الخلق معوقين.

وما زالت تلك الأعين تغض أبصارها عن محاسنهم، لكنها تطلق نظرات الازدراء والسخرية، وما فتئت تواصل التحليق في فضاءات التعالي، حتى إنها تنظر إلى الناس من أبراج عالية، فتراهم صغارًا يملؤهم الصغار، وتشاهدهم مجرد حثالات حقيرة وحشرات صغيرة، وتعتقد أنهم بدونها يغرقون في أوحال التخلف وينغمسون في أقذار الخطيئة.

تلصص الآذان

أما آذان المتكبرين فهي ليست استثناء من إعصارهم الناري، الذي لا يكف أذاه عن الخلق، ولا يتوقف عن غمط الحق والزراية بأهله.

إنها دائبة في التلصص على عورات الناس والتجسس على خصوصياتهم، والبحث عن مثالبهم ومناطق ضعفهم ومداخل قصورهم.

وفي معامل الكبر يتم تضخيم هذه المشاهد المسروقة وإعادة إنتاجها، بحيث تكون صالحة للزراية والانتقاص، ولتأكيد نظرية التميز والاستعلاء.

غطرسة الأنوف

إن الأنوف في الوضع الطبيعي، هي رمز الأنفة والتأبي على محاولات الإذلال الخارجي، والاستعلاء على رغبات الانخراط في السفاسف، والانحطاط في التفاهات.

أما أنوف المتكبرين فهي تشمخ غطرسة وكبرًا على الخلق، وبفعل من أفكار ومشاعر الغطرسة ما تزال هذه الأنوف تشمخ إلى الأعلى بطريقة مرضية، حتى تطاول عنان السماء، بل تكاد تنخلع من مكانها لتخلع كل ما بقي من تواضع الإنسان.

إن أصحاب هذه الأنوف يعتقدون أنهم كائنات مختلفة، تنحدر من أجناس راقية، وتتحدر من أعراق نقية، وأن في عروقهم تجري دماء زرقاء، وأنهم يتمتعون بقدرات خارقة، تجعلهم قادرين على مصاولة كل أحد ومطاولة كل شيء، حتى يظنون أنهم يسبحون فوق السحاب، بل يخيل لهم من كبرهم أن أوهامهم تسعى.

بغي الألسنة

إن ألسنة المتكبرين تنضح من أواني التكبر، وتفضح أماني المتكبرين والتي لا ترجو لله وقارًا، ولا تراعي للخلق ذمامًا.

فإن هذه الألسنة نار تحرق من لا يستهويهم المتكبرون، وتلذع من ينافسونهم على أي شيء من متاع الدنيا، وتستشيط غضبًا من أصحاب المواهب، وتنشط في بخس الناس أشياءهم، حيث تسرد مثالبهم الحقيقية والمتوهمة، وتنظم عيوبهم الواقعية والمتخيلة.

وتنطلق حدادًا تقطع بلا عقال من دين، أو زاجر من خلق، أو رادع من عقل، حيث تغمط أهل الكفايات وتبخس أهل الملكات، مسارعة إلى جلدهم بحبالها الصوتية، حبال الاحتقار والازدراء والانتقاص.

استطالة الأيدي

إن أيدي المتكبرين أطول من ليالي المسغبة الشتوية، لكنها تظل أقصر من أطماعهم التي تهفو إلى الاستئثار بكل المنافع واحتكار سائر الثروات.

فالمتكبرون من أشد المستطيلين على خلق الله، حيث تمتد أيديهم طولاً وعرضًا، يمنة ويسرة؛ لأن أصحابها يعتقدون أن كل ما ينهبونه ويسرقونه إنما هي بضاعتهم ردت إليهم أو استردوها، وأن غيرهم أحقر من أن تخلق هذه الآلاء والنعم من أجلهم.

ولا تتورع هذه الأيدي عن مقارفة سائر المظالم، من ضرب للأبشار، وهتك للأعراض، وغصب للأموال،

hiramagazine.com

وتدمير للبنيان، وتغيير للمعالم والحدود، وتعذيب للبرآء، وحرمان للناس من أبسط حقوقهم، بحجة أنهم أراذل وحثالات وسفهاء، مع تغير العناوين والشعارات والتفاصيل، من عصر إلى آخر.

اختيال الأرجل

وتسير أرجل المتكبرين في ركاب ظلمهم وتجبّرهم، حيث تسير بأصحابها في الأرض أشرًا، وتحملهم إلى مواطن الاختيال والتبختر بطرًا.

وإن أحدهم ليبدو كأنه يسير في الطريق على سجاد أحمر، وتحفه صفوف حرس الشرف، بل ويتوهم أن الجماهير تصفق له وتتهافت على الهتاف له، وتتسابق على التسليم عليه، حتى يعتقد فعلاً أنه سيخرق الأرض ويبلغ الجبال طولاً.

إن هذه الأقدام تستعير من الظباء خفتها، ومن الفهود سرعتها، ومن الأسود مخالبها، حيث تسارع إلى مواطن الظلم والفساد، وتسابق إلى مراعي الشرور والآثام.

فلسفة الكبر ومنظومة التبرير

لقد رأينا أن الكبر يجعل الكائن كتلة صلدة من الشر المستطير ومن الظلم المستطيل، بل يجعله إعصارًا يحمل في جوفه نارًا تحرق الأخضر واليابس، وتهلك الحرث والنسل، وتدمر العمران وتشيع في الأرض الفساد، وتحيل الأرض إلى بلاقع يبابية.

غير أن الأفظع من كل هذه الجرائم، هو الفلسفة التي يتكئ عليها المتكبرون ويتدرعون بها، ومن خلالها يصنعون منظومة شاذة للتبرير.

فالمتكبرون خريجو مدرسة إبليس الذي تكبر ثم برر، فكان كبره دافعًا لرفض أمر الله بالسجود لآدم، ثم دفعه الكبر مرة أخرى للبحث عن ذريعة يبرر بها هذا التمرد والعصيان، فكانت مقولته الأشنع من المعصية نفسها، والتي نسب الغواية فيها إلى الله تعالى، فقال بكل وقاحة: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾(الحجر:٣٩).

وما زال المتكبرون في كل العصور يستثمرون الدين بكل ضعة، وينسبون جرائمهم إلى الله تعالى بكل وقاحة، ويلومون كل أحد إلا أنفسهم العليلة، وما زالوا يذرون الرماد في عيون الضحايا، بتسخير الدين لتأصيل

لا يتكبر إلا من تعتريه مشاعر النقص ويعاني من عقدة الدونية، ومن ثم فإنه يعوض هذا النقص بالتكبر، كأنه يوهم نفسه أنه كبير، ويقنع الآخرين أنه قوي، وذلك بمقارفته لصور من التكبر، وممارسته لمظاهر تجسد الاستعلاء.

حراء

انحرافهم، وتبرير فسادهم، والظهور بمظهر المتمسك بأهداب الدين، الحريص على تطبيق تعاليمه، وفي مقدمتها بالطبع معاملتهم كأنهم أبناء الله وأحباؤه، أو أبناء الرسول ﷺ وأولياؤه المصطفون.

وفي إطار الفلسفة المنحرفة لهؤلاء، فإنهم يعتبرون هذا الجنوح الشديد تجنيحًا في إطار تطبيق هذا الدين العظيم، ويسمون غطرستهم شموخًا، وتكبرهم إباء، وتسلطهم سموًّا، وطغيانهم عزة، وقهرهم قوة، وبطشهم منعة، وإجرامهم جهادًا.

الاعتصام من الخلق

من استقراء حالات كثير من المتكبرين، يتضح أنه لا يتكبر إلا من تعتريه مشاعر النقص ويعاني من عقدة الدونية، ومن ثم فإنه يعوض هذا النقص بالتكبر، كأنه يوهم نفسه أنه كبير، ويقنع الآخرين أنه قوي، وذلك بمقارفته لصور من التكبر، وممارسته لمظاهر تجسد الاستعلاء. وفي ذات الوقت فإنه يعاني من الخوف، الذي يتعاظم نتيجة ردود فعل الناس الرافضة لتكبره وتجبره عليهم.

وعلى العموم فإن هذا الصنف من الناس يعانون من تركيبة نفسية عليلة، حيث تجتمع في هذه التركيبة عدد من العلل أهمها ضعف الثقة بالذات والخوف الهستيري، مما يضاعف عنده المخاوف والهواجس التي تحرمه السكون والسكينة.

إن رعبه يحسسه بأن الناس يكرهونه ويحتقرونه، ولكي يتجنب مشاعر الصغار والهوان التي تستحوذ عليه، فإنه يقنع نفسه أن هؤلاء يحسدونه على تميزه وذكائه، ويحقدون عليه لقدراته ومواهبه، وأنهم لذلك يتربصون به الدوائر ويحيكون له المؤامرات.

hiramagazine.com

إنه ما يفتأ يواري جبنه تحت قشرة الجبروت، ويخفي خوره تحت مظاهر الاختيال، ويخبئ صغاره تحت أردية الكبر، ويضع التياعه تحت ثياب التبختر.

فهو دائم الشعور بأن الآخرين يستهدفونه، ويتحينون الفرص للانقضاض عليه، ولذلك يندفع بهواجة إلى الاحتماء في أبراج التكبر وقلاع التجبر، والتي يعتقد أنها ترفعه مكانًا عليًّا يقيه من الأخطار، ويلبس بجانب ذلك دروع الغطرسة، ويستعير كثيرًا من أدوات التوحش بحجة الدفاع عن النفس، فيأخذ الشوك من القنافذ والأنياب من الضبع، والمخالب من الأسد.

ولذلك فإن هذا الصنف يعيش في حالة استنفار دائمة، كأن الحياة بالنسبة لهم حرب لا هدنة فيها ولا مداهنة، وأنه إن لم يتذأب أكلته الذئاب.

طغيان المتكبرين

من يتمعن في تأريخ الطغاة سيجد أن حجر الزاوية في هذا التوحش هو الكبر، فهو الذي يرديهم ويجعلهم في طغيانهم يعمهون.

كأن الكبر رافعة إلى الطغيان، حيث يجعل أصحابه جلامد صخر تنحط بثقلها المدمر من شواهق الغرور وقمم العلو، حتى لكأنهم من حجارة الجحيم أو دوامات إبليسية، صنعها الشيطان الرجيم على عينه، وأرسلها للانتقام من أبناء آدم عليه السلام الذي تسبب في غوايته وإخراجه من الجنة، وإلحاق اللعنة الإلهية الأبدية به وبنسله من الشياطين.

ولما كان الكبر القشة التي قصمت ظهر إبليس، فإنه يدرك خطورته، ولذا يستخدمه كسلاح فتاك، إذ يتسلل إلى احتناك ذرية آدم عليه السلام من الكبر المنبثق عن طباع الفجور، الناتجة عن أوضار التراب.

إن الكبر الذي ينفخه أباليس الجن والإنس في نفوس البشر حتى تنتفخ أوداجهم، هو الذي يجعلهم ظلمة جبارين، فيظلم كل واحد منهم على قدر طاقته، غير أن الذين يجدون أتباعًا وأموالاً وجنودًا يستغني بهم، يندفعون إلى مستنقع الطغيان بسرعة الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾(العلق:٦-٧).

ولهذا تجد الطغاة، مع وجود فروق ذاتية وموضوعية، يندفعون إلى معاقرة سائر صنوف الجور والجبروت، واجتراح شتى أساليب القهر والقسر ضد أهاليهم وشعوبهم، بكل لذة ونشوة وابتهاج.

الطغيان وليد الكبر

الطاغية هو الوليد الطبيعي للكبر، ولا سيما إذا عاش في بيئة عليلة، اجتمع فيها الجهل المعرفي، والضعف النفسي، والارتخاء الخلقي، والترهل الاجتماعي، ولذلك تجد الطاغية حربًا شاملة على كل ما هو جميل وحسن حيثما وجد.

فالطاغية لا يكف عن إطفاء مصابيح الضياء وقناديل النور، وعن إشاعة الدياجير المتخفية، وتشجيع الظلمات الزاحفة، والاستكثار من الحوالك التي تتوالد كالحيوانات، وتنقسم كالخلايا السرطانية.

إن الطاغية الذي تربى في حجر الشيطان وتغذى على الكبر، هو فاشل بكل المقاييس، لكنه يبدع في صناعة الأغلال والأصفاد، وينجح في بناء المعتقلات والسجون.

ولا يتوقف عن تجريع كل من لم ينضم إلى قطيعه الأعمى مرارة الويلات وعلاقم الذل والهوان، دافعًا إياهم إلى خفض رؤوسهم ورفع رايات الاستكانة والاستسلام، وبيارق الاستخذاء والاستجداء، والدخول إلى بيت الطاعة وحظيرة العبودية.

ولا يجد الطاغية ذاته إلا في الهيمنة على مقاليد البلاد، والسيطرة على مقادير العباد، وفي الهيمنة على مقدرات الشعب، والاستحواذ على ثروات الوطن، وكل ما زادت طبائع القطيع في رعيته زادت طمأنينته.

المخرج والحل

إن إطفاء هذا الإعصار الشيطاني، يحتاج إلى جملة من الأمور التي تتضافر، حتى تجتث الشجرة الزقومية التي تشعل أواره وتذكي عصفه، وهي أمور مرتبطة بالتوازن بين العقل والقلب، أو الجوانب الفكرية والجوانب النفسية، وتستحق هذه الأمور أن تفرد في مقالة وافية، ستكون بإذن الله بين أيدي القراء الكرام في العدد القادم. ■

(*) أستاذ الفكر الإسلامي السياسي، جامعة تعز / اليمن.

hiramagazine.com

د. جمال السفرتي*

سبيل المصلحين

١

الغربة إحساس مؤلم تتوق النفس للخلاص منه.. ويتصاغر الألم ها هنا إذا جمعتك الغربة مع آخرين يؤنسون وحشتك ويكونون لك عونًا.. ولكن ستبقى الغربة غربة؛ حتى يجعلك القدر مع الذين اغتربوا عن الدنيا ولهوها، وعن شهواتها وبريقها.. فعندها تخشع الروح ويسكن أوراد الاغتراب. فأنت مع

المصلح هو من يتصدى لظاهرة خاطئة في المجتمع، ويقوم بإصلاحها وفقًا لنظرة شرعية أو علمية أو عقلية سليمة.. والمجتمعات لا ترتقي وتنمو إلا بالمصلحين. والله ﷻ يرفع العذاب عن أمة إذا كان أهلها مصلحين.

حراء

الفئة المؤمنة الذين اغتربت أشواقهم عن الدنو وارتقوا التلال الزمردية، فانتصرت عندهم الروح وأشرقت، وسلكوا طريقًا ينشدون فيه: "لعلنا نبعث من جديد".. فأقاموا صرح الروح المتهالكة، وشيّدوا حضارتهم المنسية بعد أن أرْسَوا لها الموازين ليثبت البنيان، وأناروا طرق الإرشاد وسبله بأضواء القرآن المنير وسنا النور الخالد، لتكون عودة الفرسان بداية الأمل لمنهج الغرباء في الإصلاح.. عندها إن كنت معهم -مع المصلحين- ولو للحظة، أو نظرة، أو دفعة، أو بسمة، فلن تكون غريبًا أبدًا.. فالغربة أن لا تكون مع المصلحين، وأن لا تعرفهم ولا يعرفونك.

فإذا عرفوك فليس بعد هذا الجمال جمال.. وأبهى الجمال أن يجعلك الله تعالى مع أهل جمال القلوب والأرواح، مع الأئمة الهداة المصلحين.

لحظات ولا أجمل ولا أرقى ولا أحلى ولا أنقى، أن تكون على بساط واحد، وفي فضاء واحد مع المصلحين.. تختلط الأنفاس وتتشابك الألحاظ، وتتبادل القلوب الأدوار.. تدمع العيون.. تبسم الشفاه.. ترجف الأفئدة.. ولكن، أنّى للأيام أن تتوقف ها هنا؟! وكم يتمنى المرء عندها أن يتوقف الزمان أو أن يتوقف القلب عن الخفقان.. فأنت مع المصلحين.

والمصلح هو من يتصدى لظاهرة خاطئة في المجتمع، ويقوم بإصلاحها وفقًا لنظرة شرعية أو علمية أو عقلية سليمة.. والمجتمعات لا ترتقي وتنمو، إلا بالمصلحين. والله ﷻ يرفع العذاب عن أمة إذا كان أهلها مصلحين.

والإصلاح لا يكون في الأمور الدينية فقط، وإنما في المنظومة التعليمية والعلمية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية وغير ذلك.

ولقد جاء زمن الأنبياء وولّى، فلا نبي بعد خاتم الأنبياء ﷺ، فعندما نتكلم عن إمام أو مصلح، ونثني عليه وعلى جهده وفكره، فنحن جميعًا نعلم أنه لن يكون نبيًّا أو يجاريه، بل هو يفخر أن يكون شعرة على جسد نبي.والمدرسة الإصلاحية التي حث على تأسيسها الأستاذ فتح الله كولن، هي نموذج يحتذى في هذا العصر وما بعده. الأستاذ كولن، أعاد للمدرسة والعملية التربوية منهجها الإصلاحي، من خلال دورها الإيجابي والتربوي الاجتماعي والريادي، بعد أن غفل عنها المسلمون لقرون طويلة، وتوجهوا نحو المسجد الذي فقد دوره الحقيقي أيضًا أو كاد في أن يكون مدرسة وجامعة ودار رأي وقرار.

وفي أسفارنا حيث حط بنا الرحال في الغرب، وتساءلنا عن السبب في إقبال الناس على مدارس الخدمة، أجابنا بعض المسلمين الذين أفنوا شبابهم وأعمارهم هناك بجواب كنت أعلمه في يقيني وقلبي وروحي، ولكن لم يسبق لي أن سمعته من أحد.. "عندما نرسل أبناءنا إلى المدارس العامة فإنهم يحصلون علمًا وخيرًا، ويجنون

hiramagazine.com

ثراء في المنظومة الدنيوية للعلوم المختلفة، ولكنهم بالتالي سيحصدون خسارة رهيبة مرعبة في دينهم وأخلاقهم. وإن نحن أرسلناهم إلى مدارس خاصة (إسلامية)، فإنهم سينهلون الكمّ الوفير من منظومة دينية وأخلاقية هي الأنقى والأرقى، ولكنهم سيفقدون علمًا وعلومًا على غاية من الأهمية والضرورة.. حتى كانت الخدمة بيننا بمدارسها ومراكزها"، تكوين علمي دقيق يواكب أعلى المستويات في أرقى المدارس العالمية، بل وينافسها من خلال النشاطات والمسابقات العالمية المعتبرة، إضافة إلى بذر بذرة الانتماء لمنظومة إيمانية نقية وأخلاقية راقية.. فكان نتاج هذا كله أن أسست لجيل سينبعث من جديد ليحمل الراية، ويسعى للهدف ويحقق الآمال.. هو جيل البعث والإشراق الذي عشنا معه أوقاتنا من السعادة والانبهار في أفريقيا وأدغالها، وأوروبا وسحرها، وأمريكا وحضارتها. لذلك هم شدوا الرحال لغاية سامية، وأعلنوا أنهم سيمضوا في مسيرتهم نحو عالمهم المنشود، ويسيرون على الدرب يعلنونها بصوت رخيم جميل.

على الدرب سائرون، ونحو عالمنا المنشود بفضل الله ماضون.. والعلم كالإيمان عندنا، والعبادة قرينة الفكر، والأخذ بالأسباب أجنحة التوكل، والأمل طاقة للحركة، والصبر رفيق الدرب.

على الدرب سائرون، نبحث عن جيل مستنير مشرق يَعِدُ الدنيا بالجديد، نصطنعه لرسالتنا من بين عصر وهن أهله وصار غثاء.

نعم، هذا نداؤهم وشعارهم، وتلك هي رايتهم وأمانيهم يبثونها على لسان أستاذهم وكلماته.. "سنمضي في مسيرتنا نحو عالمنا المنشود".

عملوا بصمت.. وساروا بتؤدة.. فرسان النهار، رهبان الليل والعتمات. جهروا بهمس، وأسرعوا بتؤدة، وابتسموا بدمع، ونظروا بأدب.. حملوا لهم من غير أن يشتكوا.. وبذلوا أموالهم من غير أن يستجدوا.. وعاشوا النعم والنعم سواء.. أُوذوا ولم يؤذوا.. أعطوا ولم يأخذوا.. سهروا وما ناموا.. عشقوا وطنهم ولأجل الرسالة تركوه.. ولأجل غيرهم تركوا أبناءهم وفلذات أكبادهم مع حبهم الدفين وشوقهم وحنينهم لهم في كل حين.. فلصلاح غيرهم كانوا مصلحين، فحفظ الله ذراريهم، وكانوا معهم من المحسنين.

هذا هو الطريق.. طريق الإصلاح والمصلحين.. فإذا وهن الناس في زمان وتكالبت عليهم أفكارهم ومصالحهم إلى جانب عدوهم، عليهم اتباع سبيل المصلحين الذين شهدت لهم أعمالهم وعرفناهم بثمارهم ونتاجهم.

وعلى المنصفين المؤمنين الذين يخشون يومًا سينادى فيه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾(الصافات:٢٤)، أن يقفوا وقفة الإيمان والوفاء مع أهل الإيمان من المصلحين.. فإنهم مسؤولون عن كل مظلمة أو افتراء أو تعطيل أو حتى إعراض عن سبيلهم. فإلى المنصفين أوجّه النداء.. إلى الصادقين أرسل خطابي.. كونوا مع المصلحين لأجلكم ولأجل أبنائكم والآخرين.. فهذا طريق الإصلاح لا يحتاج إلى تكليف، وإنما يحتاج إلى الصدق.

آن الأوان أن يقف الجميع مع إيمانهم وضمائرهم، ويحكّموها قبل أن تحكم عليهم يومًا في محكمة قاضيها رب العالمين.

آن الأوان أن نتوجه بالخطاب نحو السفهاء والمستهزئين والمتجبرين، حتى لا يظلم الدين معهم. فلماذا يتكلم باسمنا اليوم وباسم ديننا أصحاب الرعونة الفارغة، وأصحاب البطولات الكاذبة؟

لماذا لا نعامل الناس ونخاطبهم بأخلاق ديننا، لا بأهوائنا ونفوسنا وسياستنا الرعناء السقيمة؟

أليس هذا الذي يجمعنا؛ كتابنا؟ قرآننا؟ دستورنا؟ نورنا؟ ألا نخشى أن تعاتبنا الإنسانية جمعاء يومًا؟ ألا تغشانا الرهبة أن تشكونا البشرية يومًا إلى الله؟ لأننا ظلمناهم وأغمضنا عيوننا عن أنوار المصلحين وأشواقهم؟

آن الأوان أن ينتبه الدعاة والأئمة والمفكرون والمثقفون، ويتوجهوا مع المصلحين الصادقين العاملين يدًا بيد، لبناء ما هدمه الآخرون. ■

(*) كاتب وباحث / الأردن.

hiramagazine.com

د. محمد باباعمي*

نموذج "الطفل والمدنية"

مقال في فكرة الحرية، وخاصية الخلود

فكرةٌ نزلت -مثل قطرة ماءٍ- على سفوح عقلي العطشَى، فغمرتها سُقيًا وريًّا، واهتزَّت لها تربة قلبي الجذب، فربَت وأنبتت ما كان مِن قبلُ عدمًا في عالم الملكوت؛ ليصير بعد حين حقيقة ماثلة، وجوهرًا حاضرًا.

أن أتجوَّل شوارع المدينة باحثًا عن "سبب كلِّ شيء"، لأربط بحبل مِن علاقة بين الأسباب ومسبباتها، فحملتُ زادي، ومشيت بعيدًا.. بعيدًا.. إلى أن وصلت.

دخلتُ من الباب الشرقي للمدينة، فيمَّمت وجهي نحو حافلةٍ في

محطة وركبتُها، ثم سألت السائق بهدوء: مَن صنع هذه القطعة المتحرّكة من الحديد؟

فأجاب باختصار وقال: لا أعرفه، ولكن أعرف أنَّه عالم مبدِع في الميكانيكا، وفي فيزياء المواد والحركة.

ثم قصدتُ ناطحة سحابٍ تقع وسط البلد مثل عروس ممشوقة القامة والقوام، وسألت بوابها: من صانع هذا الجبل المشذَّب من كلِّ جانب، الشامخ الفاره؟

فقال: لا أعرفه، ولكن أعرف يقينًا، هو صاحب علم غزير في الهندسة وفي قوانين الفيزياء.

غادرت المدينة، وقد سألت أكثر من فيها عن أكثر ما فيها.. سألتُ عن الشوارع، وعن البنوك، ومحلات البيع، والمصانع، والأنفاق.. وكان الجواب هو نفسه كلَّ مرة: لا أعرف، ولكن هو.

غادرت المدينة، وغبتُ عنها ألف عام كاملة، ثم عدت على قدَر لأستكمل مهمَّة البحث مرَّة أخرى؛ فسألتُ عن الحافلة، والعمارة، والمصنع، والنفق.. وغيرها.

لم أجد الحافلة، ولا حتى ما يشبهها، كلُّ شيء قد تغير وتبدَّل، قلبًا وقالبًا، شكلاً ومضمونًا؛ أمَّا وظيفة الانتقال مِن مكان إلى مكان، فقد بقيت هي هي.. وأمَّا وسائل الانتقال، فلا شيء منها بقي على حاله.. كما كان قبل ألف عام.

وبحثت عن العمارة، فقلتُ: لعلَّها تختلف عن الحافلة كونها لا تغادر المكان؛ إلا أنني لم أجدها، لا هي ولا المكان. فلم أهتد إلى موضعها السابق؛ مَن يدر لعلها صارت تتحرك مثل وسائل النقل؟ فخاب ظني في الاهتداء إلى ذات الناطحة؛ لكنَّ وظيفة السكن، وإيواء الناس إلى بيوتهم، بقيت هي هي، كما عهدتُها منذ ألف عام.. لم تتبدَّل ولم تتغير.

فجأةً، تذكَّرتُ أني في زيارتي الأولى، قبل ألف عام، كنتُ قد التقيت بطفلٍ يافعٍ في الخامسة من عمره، يلعب في حديقة غنَّاء مع أترابه، كأنهم الحمام حول الأيك؛ فسألته: عن اسمه، وعائلته، وأحاسيسه، وبعضِ قناعاته ودعاباته.. فأجابني بذكاء فائق، وبلاغة غير معهودة.

قلت وقد عدتُ: لعلِّي أجد هذا الطفل، ولعلَّه مثل

مَن لم يكن موحِّدًا؛ كان عبدًا، ومن لم يلتفت نحو السماء؛ أخلد إلى الأرض، ومن لم يتعلق بالله تعالى حبًّا؛ تعلق بغيره هوى، ومن لم يسجد للذي وهبه الحرية خنع لمن يسلب منه إنسانيته.

حراء

فتية الكهف، لم يمرَّ عليه نهر الزمن، فلم يشِخ ولم يمُت.. لكنَّني لم أجد ذات الحديقة، فقصدتُ أقرب حديقة مني، وإذا فيها ثلَّة من الأطفال يلعبون ويمرحون، يضحكون ويبكون.. قلتُ في نفسي: لم يتغيَّر اللعب ولا المرح، ولا الضحك ولا البكاء.

ثم بحثت عن ذلك الطفل الذي لم تغادر صورته مخيِّلتي رغم طول الوقت.. فلم ألفِه بينهم بلحمه وعظمه، لكنَّ جميع الأطفال كانوا شبهًا له، لا شيء تغيَّر فيهم: فلا رأس أكبر من العنق، ولا يد غيرت مكانها، ولا عينَ حوَّرت وظيفتها.

ثم سافرتُ ثانية، وغبت الغيبة الطويلة.. ابتعدت فيها عن جغرافية الأرض، وعن محيط بني البشر.. وعدت مرَّة أخرى بعد مليون عام، فكانت النتيجة نفسها: عالَم الأشياء كلُّه تطوَّر، وعالَم الإنسان صمَد على شكله وصورته.

الجسم، والقوام، والنبرات، والملامح هي هي.. كذا الأعراض، والعواطف، والملامح، ونوازع الحبِّ والبغض، والخير والشر.. جميعُها هي هي.. لا شيء طرأ عليها.

سألت حائرًا نفسي مرَّات ومرَّات، عن الفرق بين الحافلة والعمارة والطفل؟

ما الذي جعل الأوليَان يتغيَّران، وجعل الثالثَ يصمُد؟

هل يمكن للعقل وحده أن يفسِّر هذا الفارق بعلم يقين؟

وهل ثمة أدلة مقنعة على ذلك؟

للجواب على السؤال، اهتديتُ إلى ثلاث عبارات، جمعتها في عبارة واحدة، جاء فيها:

"الله والحرية لا ينفصلان.. فإذا سلَّمنا بحرية الإنسان

hiramagazine.com

ومسؤوليته عن أفعاله، فإننا بذلك نعترف بوجود الله، إما ضمنًا أو صراحة.. والله وحده هو القادر أن يخلق مخلوقًا حرًّا، فالحرية لا يمكن أن توجد إلا بفعل الخلق" (سبنسر، وبيجوفيتش).

ثم أحسست بصوت ينبعث من عالمي الجواني، وأنا أقرأ لعلي عزت قوله: "إنَّ الله لا ينتِج ولا يشيِّد، إنَّ الله يخلق".

رحتُ أستعرض جملة من الأسئلة تكملة للفهم: ألم تكن الحرية فارقًا بين آدم عليه السلام قبل الامتحان، وأبينا آدم عليه السلام بعد الامتحان؟

أولم تكن فرقًا جوهريًّا بينه وبين الملائكة حين أُسجِدوا له؟

ألم يعترضوا على ذات الحرية التي قد تحمله على الإفساد في الأرض وسفك الدماء؟

أليست الحرية هي الحدُّ الفاصل بين "الإلهي" و"الإنساني"؟

وهل يمكن لإنسان أن يصنع شيئًا (ماكينة، عمارة، آلة) أو أي شيء آخر، له حرية الاختيار؟

حافلة مدينتنا، ليس لها الحرية في أن تسير أو تتعطَّل، وليس لها الحرية أن تختار مَن تحمل ومن لا تحمل، ولا أن تتمرَّد أو تحتج على مالكها.. والعمارة كذلك، لا حرية لها في قبول السكَّان أو رفضهم، في أن تكون هنا أو هنالك، في أن تؤدي مهمتها أو تضرب عنها.

لذلك فقط تتهالك الحافلة، وتتقادم العمارة، شكلاً ومضمونًا.. إنها لا تحمل وجهًا ميمَّمًا شطر السماء؛ هي أرضية بكلِّ ما فيها.

أمَّا بني الإنسان (الطفلُ هنا) فهو يختار في كلِّ شيء، وقد مُنحت له الحرية:

أن يقول: نعم، أو يقول: لا.

أن يتقدم أو يتأخر،

أن يطيع أو يعصي،

أن ينشط أو يحرن،

أن ينساق أو يتمرد..

هو حرٌّ؛ وحريته نفَس ربَّاني فيه، نزل عليه من السماء ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾. حرية الإنسان ليست مكونًا أرضيًّا ترابيًّا (مثل لحمه وعظمه).. حرية الإنسان، هي فوق التراب وأكثر من الترابي.

ولذا، فما دام الله تعالى له صفة الخلود (من ذاته سبحانه)، فهو -بفضلٍ منه- وهب الإنسان صفحة الخلود (من غيره). فالإنسان لا يختار أن يوجد أو لا يوجد، أن يولد أو لا يولد.. ولكنه حين يوجد ويولد (أي حين يُخلق) يكون مصيره أبديًّا، دائمًا، خالدًا.. ثم قد يتمنى أن يفنى مثل باقي الحيوانات، أو مثل التراب، فلا يُسمح له بذلك؛ ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾(النبأ:٤٠).

الفرق ظاهر في نوع الحياة التي يحياها هنالك في الشوط الثاني من وجوده؛ أي في مرحلة الخلود، والحرية، والهبة الربانية التي بدونها لا معنى للاختيار.

المدرسة (والجامعة، والدولة، والمجتمع) حين تقتل الحرية في الإنسان، هي بالضرورة تعتدي على الجانب العلويِّ فيه، تغتال أعظم هبة، وتكفر أكبر نعمة، وتظلم أقدس مظهر من مظاهر إنسانيته:

الحرية.. التي بها يتوجه نحو السماء، نحو الأبد، نحو الخلود.

والدرس العقدي إذا لم يجعل الحرية محوريًّا معرفيًّا وحقيقة وجودية، انحرف بزاوية واسعة عن مصدره (القرآن الكريم)، ومقصده (سعادة الإنسان)؛ ذلك أنَّ العقيدة والعبودية ضدَّان لا يلتقيان، فمن لم يكن موحِّدًا كان عبدًا، ومن لم يلتفت نحو السماء أخلد إلى الأرض، ومن لم يتعلق بالله تعالى حبًّا تعلق بغيره هوى، ومن لم يسجد للذي وهبه الحرية خنع لمن يسلب منه إنسانيته.

ليست مشكلة العالم اليوم -شرقِه وغربه- سوى تلك الأسطورة التي قتلت الإنسان حين اغتالت فيه حريته، واستعبدته بخبث ومكر وكيد.. وليست مشكلة البلاد الإسلامية سوى تلك الغفلة التي جعلت بعضهم يؤلِّه باسم الحاكم، أو الأمير، أو الوصي (آلهة من الحلوى)، وجعلت البعض الآخر يؤلِّه غيره باسم الحاجة، أو الجهل، أو التبعية الحزبية والأيديولجية. ■

(*) مدير معهد المناهج، الجزائر العاصمة / الجزائر.

hiramagazine.com

أسامة سعيد محمد*

لغة الكيمياء في الكائنات الحية

يتواصل البشر مع بعضهم بالأصوات.. تكوّن الأصوات حروفًا، وتكوّن الحروف كلمات مفهومة أيًّا كانت اللغة التي نتكلم بها. إلا أن هناك عوالم أكثر هدوءًا، اللغة فيها ليست بالأصوات وإنما هي لغة الكيمياء. فلنأخذ مثالاً قريبًا من أذهاننا، وقريبًا من بيوتنا أيضًا: إنه النمل.

- نلاحظ أن النمل يسير خلف بعضه البعض في خط مرسوم لا تخرج أي نملة عنه، كنا نظن في البداية أنه خط وهمي، لكن ثبت غير ذلك.

ثبت أن النملة التي تعثر على الغذاء، تقوم بوضع الآثار في طريق عودتها إلى المنزل. هذه الآثار عبارة عن مادة كيميائية تضعها على هيئة خطوط متقطعة. وعندما تخرج النملات من المنزل تفهم الرسالة، وهي أن "في نهاية هذا الخط وليمة".

لكن لماذا لا تضع النملة الخط متصلاً؟

ربما توفيرًا للمادة الكيميائية، وربما لأن الخط المتصل له دلالة أخرى لا أحد يدري على التحديد.

فلنجرّب النمل إذن.

قام العلماء بوضع تلك المادة الكيميائية على شكل دائرة تبدأ من عند باب البيت وتنتهي عنده.

هل سيفطن النمل للخدعة؟

لا بالتأكيد.. سيسير النمل على الخط أملاً في الوصول للطعام، ولكنه في النهاية سيجد نفسه في البيت.

إذا قمنا بإيذاء إحدى النملات في الصف، نلاحظ أن النملات المحيطة تصاب بحالة من الهرج وتجري في كافة الاتجاهات.

هل رأت النملات ما أصاب زميلتها؟

تفسير سخيف بالتأكيد، لأن النملة لا تعتمد على بصرها، ولا ترى نهائيًّا في بعض الأحيان.

ما يحدث هو أن النملة تطلق مادة كيميائية تحذيرية يشمها النمل فيفهم الرسالة وهي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾(النمل:١٨).

مواد كيميائية كثيرة أخرى في عالم النمل، منها على سبيل المثال "جاذبات الجنس"، وهي التي تعني أن أحد الجنسين يبحث عن نصفه الآخر.

ليست لغة الكيمياء بعيدة عن الإنسان، فهو وإن كان يتواصل مع الآخرين بالكلام، فإن أعضاء جسده تتواصل معًا بالكيمياء.

نعرف جميعًا أن إيصال الرسائل في الجسد يتم عن طريقين:

البريد السريع: الأعصاب وهو أكثر كلفة، وأثره يدوم لفترة قصيرة.

البريد العادي: عن طريق لغة الكيمياء، تشمل هذه اللغة الهرمونات، والأنزيمات، والفيتامينات.

بمجرد أن ترى الطعام؛ يسيل لعابك لا إراديًّا استعدادًا لاستقبال الطعام.

يحدث هذا بأن ترسل العين والأنف إشارات عصبية إلى الغدد اللعابية في الفم قائلة له: "استعد، الطعام قادم".

بمجرد أن يدخل الطعام فمك، تبدأ المعدة والأمعاء في العمل، لأن الرسالة وصلتهم: "استعدوا، الطعام قادم".

وهكذا في كل خطوة من خطوات الهضم تتواصل أعضاء الجهاز الهضمي مع بعضها بتلك الطريقة.

ربما يومًا ما، سنتعرف على جميع مفردات لغة الكيمياء، وبالتالي نستطيع أن نتواصل بشكل أفضل مع أجسادنا ومع الكائنات المحيطة. وربما يومًا ما سنستطيع أن نخاطب النمل كما كان يفعل سليمان عليه السلام. ■

---

* كاتب وباحث / مصر.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

HİRA DERGİSİ

İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز

فكرت يشار

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئ رسلان

مدير التحرير

أجير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرباجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad.

No:1 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Phone: +902165221144

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

دار النيل للطباعة والنشر

٢٢ جـ- جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة

تليفون وفاكس: 5-20226134402+

الهاتف الجوال : 201000780841+

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

2 Aylık-Arapça-Yaygın-Süreli,

İlmi, Kültürel

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Türkiye

Tel:+90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدًا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسلة إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علمًا بأن ما ينشر في الموقع إلكترونيًّا لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

YEMEN

مكتب حراء للنشر والتوزيع

شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن

Phone: +967 1 214774

Fax: +967 1 204494

GSM: +967 736027560

ALGERIA

Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim

GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم

أركويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان

Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69

hirasudan@hotmail.com

JORDAN

دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس

رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.

Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782

hiramagazinejordan@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع

ص.ب. 6677 أبو ظبي

Phone: +971 266 789920

MAURITANIA

Phone: +2223014264

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

USA

Tughra Books

345 Clifton Ave., Clifton,

NJ, 07011, USA

Phone:+1 732 868 0210

Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع

Phone: +966 1 4871414

المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار

ص.ب: 68761 الرياض: 11537

الجوال: 00966507570864

hirasaudia@gmail.com

Phone-Fax: +966 1 2815226

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة

Société Arabo-Africaine de Distribution,

d'Edition et de Presse (Sapress)

70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco

Phone: +212 22 24 92 00

EGYPT

٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.

هاتف: +201091242075 - +201119482609

hiraegypt@gmail.com

LİBYA

دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.

هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com

هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

إن انبلاج الفجر بعد دياجي الليل، مرهونٌ بتيقُّظ الأرواح الناذرة نفسها لله تعالى،
وتحقيقِ أعلى درجات الوعي لما تحمله على عاتقها من مهمة جِدُّ حسّاسة..

كتاب جديد للأستاذ فتح الله كولن..

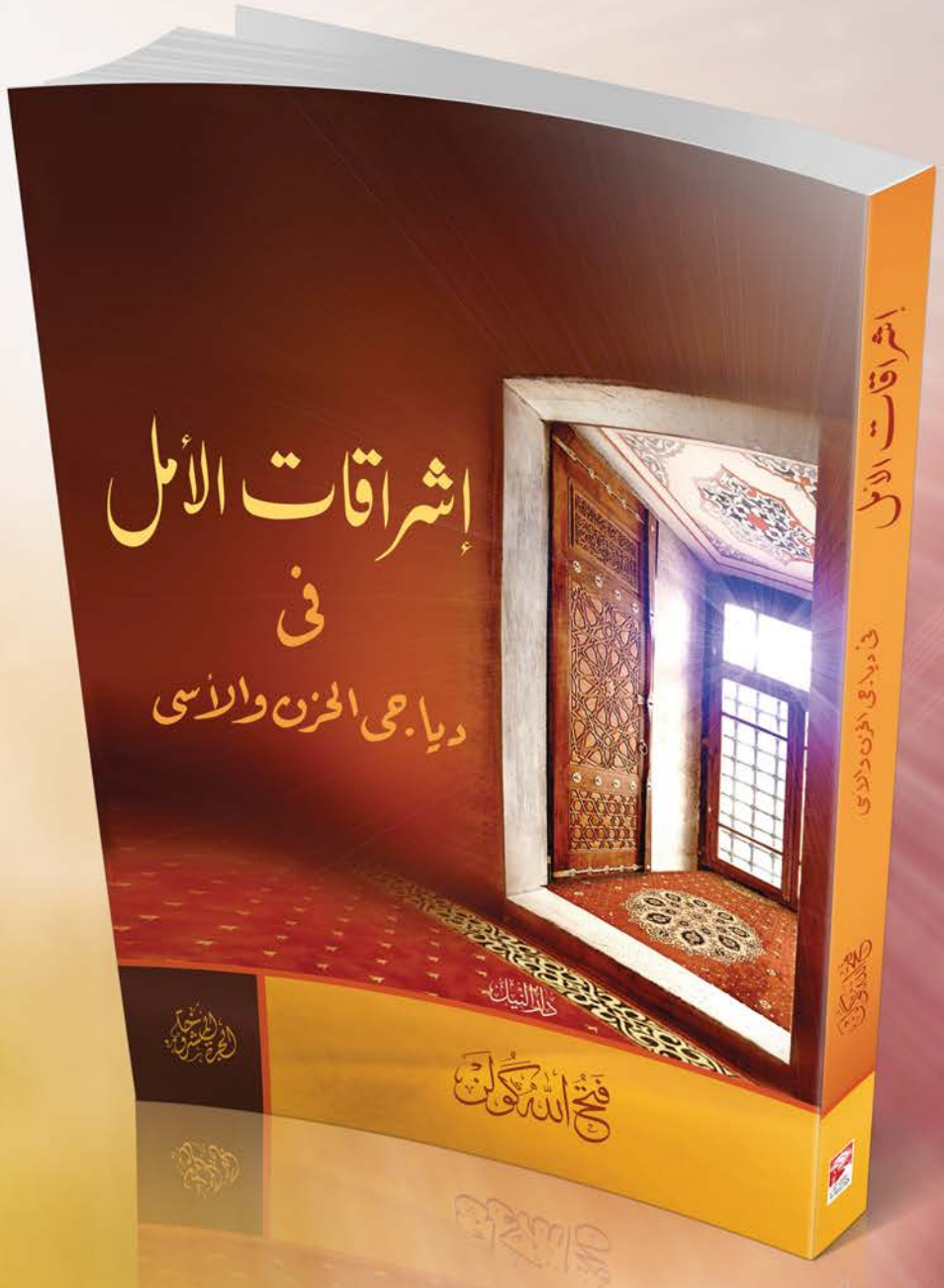

دار النيل : ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس- القاهرة الجديدة - مصر
تليفون وفاكس : 5-20226134402+ الهاتف الجوال : 201000780841+
daralnile@daralnile.com
www.daralnile.com

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريالا سعوديا • اليمن: ٣٧٥ ريالا يمنيا • المغرب: ٢٠ درهما • الجزائر: ٢٥٠ دينارا

إشراقات اللطف الإلهي

قفي وعلى الأعقاب انكصي،

يا خريفات الزمان المتعاقبات..

مضت الكآبات، وسوء الليالي الحالكات..

ترقبنا وانتظرنا، وإلى الإشراقات من بعيد تطلعنا..

يا تجليات اللطف الإلهي ما أعظمك..

فقد تفضلت وتكرمت وبنا لطفت..

فلك منا دوام الشكر، وسرمدي الحمد.

* * *

ISSN 1306-1879

9 771306 187009 51

www.hiramagazine.com

Kasım - Aralık 2015 Sayı: 51 Fiyatı: 7,5 TL.